الفصل الثاني

وجوه الإعجاز لدى المتقدمين

المبحث الأول

الإعجاز في النظم والتركيب النحوي

أولا: النظم لغة واصطلاحا:

النظم لغة: جاء في الصحاح، نظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر. والنظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، والانتظام: الاتساق.

ويقول الزمخشري: « نظمت الدر ونظمته، ودر منظوم ومنظم، وقد انتظم وتنظّم وتناظم، وله نظم منه ونظام، ومن المجاز نظم الكلام وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته».

وفي لسان العرب: النظم: التأليف، ونَظَمَه نظما، ونَظَّمَه فانتظم وتَنَظَّم، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، وكل شيء قرنته بآخر وضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته، والنظم ما نظمته من لؤلؤ ونحوه، والنظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره، والنظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وجمعه نظم، وهو في الأصل مصدر. والانتظام: الاتساق. [1]

فالمعنى اللغوي المشترك: هو ضم الشيء إلى الشيء وتنسيقه على نسق واحد، كما تضم حبات اللؤلؤ بعضها إلى بعض في سلك ونحوه[2].

النظم اصطلاحا:

إن المعنى اللغوي للنظم يفيد بأن المنظوم من كل شيء: ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد. وأن نظم القرآن: هو تناسق أجزائه وعبارته التي يشتمل عليها المصحف صيغة ولغة على نسق واحد. و هذا هو أساس المعنى الاصطلاحي الذي ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) وربطه بالنحو، فالنظم عنده :«تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض». أو هو: «توخي معاني النحو».[3]

١- أساس البلاغة:الزمخشري:١٠٥/٢،لسان العرب:١٩٦/١٤،القاموس المحيط:١٨٢/٤،والمعجم الوسيط: ٩٣٣. مادة نظم.

٢- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز : ٥٠ -٥١.

٣- دلائل الإعجاز: ٢٤.

وهكذا تتبين الصلة الوثيقة بين معنى النظم اللغوي، ومعناه الاصطلاحي، وإذا طبقنا ذلك المعنى على القرآن وجدنا النظم القرآني – الذي هو مناط الإعجاز– عند عبد القاهر وعند عدد كبير من الدارسين، هو: خصائص في أسلوبه وراء جمال اللفظ وجمال المعنى، تطرد في جميع آياته، ومعنى ذلك أن المعنى الذي جعله عبد القاهر محوراً للنظم هو المعنى المصور، وأن الذي تنسب إليه مزية النظم ليس هو المعنى الخام، وإنما هو المعنى الذي تشكل في النفس بشكل خاص، وهو صورة المعنى، لا المعنى المجرد من الصورة[1].

ثانيا: أثر عبد القاهر الجرجاني في نشأة فكرة النظم وتطورها:

إن عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) هو أول من فسر هذه النظرية تفسيرا علميا قائما على أسس متينة من المنطق والتفكير والاستدلال، ثم تجاوزها إلى ما وراءها من المعاني الثانية، وسماها: معنى المعنى، و(المعنى) عنده هو المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي يوصل إليه بغير واسطة، و(معنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، فمعنى المعنى أو الدلالة الثانية هي صنو فكرة النظم، وردفٌ لها في الوجود.

وقد ضرب لرأيه أمثلة موضحة للنظم القرآني، في الكلمة المفردة وحسن انتقائها، وفي الأدوات، وفي التراكيب، ومن ذلك:

وقف عند التقديم في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ الأنعام:١٠٠ فيقول: إن المعنى الثاني«هو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن» لأن الصفة إذا ذكرت مجردة غير مجراة على شيء كان الذي يعلق بها من النفي عاما في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة مثاله: ما في الدار كريم، وحكم الإنكار أبدا حكم النفي.

وإذا أخره كان (الشركاء) مخصوصا غير مطلق، فيحتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى الجن خصوصا أن يكونوا شركاء دون غيرهم.[2]

ويرفض عبد القاهر أن يقسم التقديم والتأخير إلى مفيد وغير مفيد، أو يعلل بالعناية أو بالتوسعة على الشاعر والأديب، لأن التقديم والتأخير في الكلام البليغ يحصل لعلل بيانية يقتضيها النظم فإذا قلت: (أفعلت) كان الشك في الفعل وإذا قلت: (ءأنت فعلت) كان الشك في الفاعل، لذا قال قوم نمرود لإبراهيم: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ الأنبياء: ٦٢، فهم لا يريدون أن يقر لهم بأن تكسير الأصنام قد كان لأنه معلوم عندهم، ولكن يريدون أن يقر لهم بأن ذلك كان منه هو،

١– نظرية عبد القاهر في النظم: د. درويش الجندي:٧٤ وفكرة النظم بين وجوه الإعجاز: ٥١ – ٥٢.

٢ – المصدر السابق : ١٩٢ .

ولذا أجابهم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ الأنبياء:٦٣، ولو كان السؤال عن الفعل لقال: فعلت أو لم أفعل.[١]

بعد هذا نأتي على ذكر أمثلة متنوعة من فن التعبير والتركيب المعجز من تطبيقات العلماء على نظمه البديع إكمالا للموضوع وبياناً لجهود العلماء في هذا الغرض.

ثالثا: تطبيقات على الإعجاز بالنظم والتركيب:

١- البنية والصيغ:

معلوم أن الاسم يدل على الثبوت والاستقرار، والفعل يدل على التجدد والحدوث[٢]، تقول: هو يكتب وهو كاتب، فيكتب يدل على الحدوث والتجدد أي أنه هو آخذ بالكتابة مجدد لها، أما (كاتب) فهو يدل على أن وصف الكتابة قد تم وثبت له، وأن الصفة قد تمكنت في صاحبها، ومن ذلك قوله تعالى:﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ المائدة: ٢٨.

يقول الزمخشري عن علة مجيء الشرط بلفظ الفعل، والجزاء بلفظ اسم الفاعل: «ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف، ولذا أكده بالباء المؤكدة للنفي».[٣] ويقول ابن المنير:«وإنما امتاز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصية من حيث أن صيغة الفعل لا تعطي سوى حدوث معناه من مفاعل لا غير، وأما اتصاف الذات به فذلك أمر يعطيه اسم الفاعل، ومن ثمّ يقولون: قام زيد فهو قائم، فيجعلون اتصافه ناشئا عن صدوره منه، ولهذا المعنى قال: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ الشعراء:١١٦، عدولا من الفعل الذي هو (لنرجمنك) إلى الاسم تغليظا، يعنون أنهم يجعلون هذه لثبوتها ووقوعها به كالسمة والعلامة الثابتة، ولا يقتصرون على مجرد إيقاعها به».[٤]

وفي قصة أصحاب الكهف قال سبحانه: ﴿ وكلبُهم باسطٌ ذراعَيْهِ بالوَصِيد﴾ الكهف: ١٨، فلو قيل: (يبسط) لم يؤد الغرض، لأنه يؤذن بمزاولة الكلب البسط، وأنه يتجدد له شيئا بعد شيء، فباسط أدل على ثبوت الصفة.[٥] ومثله قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠.

وإذا أردنا الإخبار عن أن الصفة قد ثبتت ثبوتاً أقوى وآكد، وأصبحت صفة لازمة في كل حال استخدمنا للدلالة عليها (الصفة المشبهة)، فهي تدل على الثبوت أقوى من دلالة اسم الفاعل؛ لأن

١- دلائل الإعجاز: ٨٩.
٢- الإتقان: ٢ / ٣١٦.
٣ - الكشاف:٦٠٧/١.
٤ - الإنصاف: ٦٠٨/١ (على هامش الكشاف). وهو كلام دقيق.
٥-الإتقان : ٣١٧.

صيغة (فاعل) تدل على أصل حصول الفعل دون معنى زائد، ومن هنا جاء وصف القرآن الكريم للنبيﷺ لدى مخاطبته تعالى له بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ هود:١٢، فقال:﴿ضائق﴾ ولم يقل: (ضيّق)، والفرق بينهما:«أن الضائق يكون بضيق عارض غير لازم، لأن رسول اللهﷺ كان أفسح الناس صدرا» بخلاف ضيق.[١] لأن صيغة (فعيل) تدل على التكرار والاستمرار مع الثبوت، نحو: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ هود:٧٢، فإذا أريد المبالغة بصيغة (فعيل) نقل إلى (فُعَال)، نحو:﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ص:٥، وإذا أريد زيادة المبالغة قيل: (فُعّال). نحو: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ نوح:٢٢.[٢]

وهكذا الجملة الاسمية هي أقوى من الجملة الفعلية، وقد تستخدم الصيغة الاسمية لأمر لم يحدث بعد، للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر، ولهذا قال العلماء: إن سلام الخليل أبلغ من سلام الملائكة في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ هود:٦٩، فإن نصب (سلاما) إنما كان على إرادة الفعل بتقدير: سلمنا سلاما، وهذا مؤذن بحدوث التسليم منهم، بخلاف سلام إبراهيم، فإنه مرفوع بالابتداء، فهو جملة اسمية، فاقتضى الثبوت على الإطلاق، وهو آكد وأبلغ مما يتعرض له الحدوث، فكأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ النساء: ٨٦، ثم إن السلام الأول مندوب، ورده واجب، والجملة الاسمية أثبت وآكد من الفعلية.[٣]

ومنه قوله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠١، فلم يقل: (يبصرون) لأن البصر صفة لازمة للمتقي، وعين الشيطان ربما رجحت، فإذا تذكر رأى المذكور، ولو قيل (يبصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب فعل لا عود صفة.[٤]

ومن هذا قوله تعالى:﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ الأعراف:١٩٣، فأتى بالفعل الماضي في الدعوة، وفي عدمها بالاسمية، وذلك لأن الفعل الماضي يحتمل هذا الحكم دائما، ويحتمل وقتا دون وقت، فلما قال: ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ أي: سكوتكم عنهم أبداً ودعاؤكم إياهم وأحد، ولم يقل: (أأنتم داعون لهم أم أنتم صامتون)، أو: (أدعوتموهم أم أنتم تصمتون)، لأن الدعوة حركة وتجدد

١- تفسير الرازي:١٧/ ١٩٣ نقله من قول الواحدي.

٢ - ينظر علم التفسير: ٢٢٣و٢٥٩.

٣-البحر المحيط:١/٢٤٥و١٤/٢، البرهان :٤/ ٧١والإتقان :٢ /٣١٨.

٤-البرهان : ٤ / ٦٨.

وعمل، بينما الصمت ثبوت وسكون ،فناسبت كل صيغة من الصيغتين المعنى المستعملة فيه وطبيعته، زيادة على أن (صامتون) فيها مراعاة للفواصل، والتمكين من تطريفه بحرف المد واللين، وهو للطبع أنسب من صمتهم وصلا ووقفا.(١)

ومثل ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الأنفال: ٣٣. فإذ كان نفي العذاب الأول عنهم متعلق بوجوده ﷺ فيهم، ووجوده ﷺ بجسده غير دائم جاء بالصيغة الفعلية، ولما كان الاستغفار والأخذ بسنته هو سبب نفي الثاني، وهو مستمر ودائم، جاء به بالصيغة الاسمية.(٢)

ومن ذلك استخدامه لصيغ الجموع: فقد يستعمل صيغة جمع في موضع، ويستعمل صيغة جمع أخرى لنفس الكلمة في موضع آخر، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١، وقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ يوسف:٤٣، فاستخدم في جمع كلمة (سنبلة) مرة: (سنبلات)، ومرة أخرى: (سنابل)، مع أن العدد في الآيتين واحد، هو: (سبع)، وسر ذلك أن (سنابل) جمع كثرة، و(سنبلات) جمع قلة، وقد سيقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور، فناسبه جمع الكثرة (سنابل)، وأما الآية الثانية فلم ترد لمثل هذا الغرض، وأن العدد (سبعة) عدد قليل ولا يقتضي التكثير، فجاء بلفظ القلة معه فقال (سبع سنبلات) على الأصل، واستخدم كل لفظ لما يناسبه في موضعه(٣).

وفي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح جاء قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ الكهف:٧٩-٨٢، فقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال في قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾، وقال في إقامة الجدار: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾.

١- الكشاف :٢/ ١٣٨ والبرهان : ٤/ ٦٩

٢- فتح القدير : ٢/٤٤٢-٤٤٣ و نقل نحوه عن ابن عباس وأبي موسى الأشعري وأبي هريرة.

٣- التفسير القيم: ١٥٤، والبرهان للزركشي: ٤ / ٢٢.

ففي خرق السفينة لما وصفه بالعيب نسبه سيدنا الخضر إلى نفسه، ونزه الباري عن فعل العيب. ولمّا كان في قتل الغلام معنيان: ظاهر، وهو (إفساد)، لما فيه من إزهاق الروح بالقتل والبطش بلا سبب ظاهر، وباطن: هو (خير) لما فيه من إبدال خير منه رحمة بوالديه، فأتى بالفعل مسندا إلى ضمير الجمع ليفيد الاشتراك بالفعل لكل بما يناسبه، ولهذا قال في الإبدال:(يبدلهما ربهما) لأنه فعل محض لله وهو خير فأسنده إليه وحده. وفي إقامة الجدار، فهو عمل كله خير ظاهره وباطنه، فناسبه إسناده إلى الله تعالى وحده: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾. مع أنه قال في الجميع[1] ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ الكهف:٨٢ .

وعلى العموم فهذه ظاهرة بارزة في أسلوب القرآن الكريم، فإذا كان المقام مقام مدح وثناء أو مقام تفضل ونعمة، أو خير وتشريف وتكريم فإنه يظهر نفسه ويصرح بالفاعل، تنبيهاً على لزوم مقابلة الفضل بشكره، وإذا كان المقام مقام ذم أو سوء وشر ومقام تقريع وتوبيخ يبنى الفعل للمجهول.[٢]

٢- التقديم والتأخير:

وهو أهم وأدق فنون النظم، وجاء في القرآن بأحسن صوره، سواء في باب تقدم اللفظ على عامله، أو على غير العامل.

ومنه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة:٥، فقدم المفعول (إياك) على فعلي العبادة والاستعانة، وسببه أن العبادة والاستعانة مختصتان به تعالى، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان إلا به، وقدم فعل العبادة على فعل الاستعانة، لأن العبادة سبب في حصول الإعانة[٣].

ومن ذلك تقديم المغفرة على الرحمة، وذلك: «أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ سبأ: ٢، لأن الرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً، والعموم قبل الخصوص بالرتبة».[٤]

١- البرهان : ٤/ ٦٠ نقله عن ابن عطية.

٢-ينظر لمزيد من الأمثلة : البرهان : ٤/ ٥٩/ ٦٦.

٣-الكشاف: ١/ ٤٨.

٤- البرهان في علوم القرآن: ٣ / ٢٤٩.

ويقول الرازي: المغفرة إذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه ستر عيبه، ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه، وإذا ذكر المغفرة بعد الرحمة وهو قليل فمعناها أنه مال إليه لعجزه فترك عقابه، ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه.[1]

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام:١٥١، وقوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ الإسراء:٣١، فقدم رزق الآباء على رزق الأبناء في الآية الأولى، وقدم رزق الأبناء على رزق الآباء في الآية الثانية، وذلك لأن الخطاب في آية الأنعام موجه إلى الآباء الفقراء، بدليل قوله: ﴿مِنْ إِمْلاقٍ﴾؛ لأن الذي يقتل أبناءه بسبب الفقر هو الأب الفقير، فناسبه تقديم الوعد برزق الآباء لأنهم بحاجة إليه، وزاد عليه وعدهم برزق الأبناء أيضاً تطييباً لنفوسهم وزيادة اطمئنان لهم.

أما آية الإسراء فالخطاب فيها لآباء أغنياء، بدليل قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾، يعني خوفا من الفقر، والذي يخشى الفقر هو من كان لديه مال ويخاف ذهابه، أما المعدم فإنه لا يقال يخشى الفقر، لأنه واقع فيه، فالفقراء يقتلون أولادهم بسبب الفقر، لا خوفاً من الفقر، ولما كان هؤلاء الآباء الأغنياء يقدمون على قتل أبنائهم خشية ذهاب أموالهم ووقوعهم في الفقر بسبب إنفاقهم على أولادهم، ناسبه تقديم الوعد بضمان رزق أبنائهم، كي يأمنوا ولا يخافوا الفقر، ومعه زيادة اطمئنان لهم بالوعد برزقهم هم أنفسهم تبعا لأبنائهم[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ البقرة: ٤٨، وقال في موضع آخر: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ البقرة: ١٢٣. فقدم الشفاعة وأخر العدل في الأولى، وأخر الشفاعة وقدم العدل في الثانية، مع التعبير بقبول الشفاعة تارة وبالنفع أخرى .

وذكر في حكمته أن الضمير في (منها) راجع في الأولى إلى النفس الأولى وهي الشافعة، وفي الثانية راجع إلى النفس الثانية وهي المشفوع لها، فبين في الأولى أن النفس الشافعة الجازية عن غيرها لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل، وقدمت الشفاعة لأن الشافع يقدم الشفاعة على العدل .

١- التفسير الكبير: الرازي: ١٩٣/٢٥-١٩٤

٢- الإتقان: ٣ / ٣٤٣.

وبين في الثانية: أن النفس المطلوبة بجرمها لا يقبل منها عدل عن نفسها، ولا تنفعها شفاعة شافع منها، وقدم العدل لأن الحاجة إلى الشفاعة إنما تكون عند رد العدل، ولذلك قال في الأولى: (لا يقبل منها شفاعة) وفي الثانية قال: (ولا تنفعها شفاعة)؛ لأن الشفاعة إنما تقبل من الشافع، وأما المشفوع له فإنما هي تنفعه.[1]

٣- الحذف والذكر:

لقد استعمل القرآن الكريم الحذف والذكر بأدق صورة وأجمل بيان، فهو إذ يحذف الكلمة أو الحرف أو يذكره فإنما يكون ذلك لغرض فني، وبحسب اقتضاء السياق، فكل حرف فيه وكلمة وضع وضعاً فنيا مقصودا.

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ الكهف:٩٧، فقد حذف التاء مع صعود السد الذي بناه ذو القرنين فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يصعدوه، والأصل (استطاعوا)، بينما جاء بالتاء مع محاولة نقبه وإحداث ثقب فيه فقال: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾، وذلك لأن صعود السد-الذي هو قطعة من الحديد والنحاس المذاب عليه- أيسر من نقبه وأخف عملا، فخفف الفعل مع العمل الخفيف فحذف التاء في الصعود، وطول الفعل مع العمل الثقيل الطويل، فأبقى التاء في النقب.[2]

ويمكن أن يكون أيضا: أن الصعود لما كان قد تحصل المحاولة فيه للإنسان بمفرده أسقط التاء، ولما كان النقب يحتاج إلى إعانة وتعاضد أتى بالتاء دلالة على زيادة الفاعلين، ثم أن الصعود يحتاج إلى خفة الصاعد وتفرغه عن الأثقال، فخفف بناء الفعل معه، وأن النقب يحتاج إلى تكثيف الجهد والاستعانة بالآلات والأعوان، فثقل الفعل معه تناسبا معه. فسبحان من لا يغيب عنه شيء في السموات والأرض.

ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾. الكهف: ٧٢، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ الكهف: ٧٥، فهذه الآية هي عين الأولى، إلا أنه زاد ههنا: (لك)، وحذفها من الأولى، وذلك لأن الأولى جاءت عقب إنكار موسى أول مرة، فلما تكرر إنكاره عقب قتل الغلام قال الخضر: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ﴾ زيادة في تأكيد الإنكار عليه بالتعيين، والداعي لذلك أنه أهمل العمل بالقول والتحذير الأول، فكان أن جاء الإنكار أكثر وآكد.[3]

---

[1]-الكشاف:١/٢٧٩والبحر المحيط:١/١٩٠ -١٩١و٣٧١والإتقان:١/٣٤١.

٢- ملاك التأويل:٢/٦٥٥.

٣- البحر المحيط:٦/ ١٤٢، الجامع لأحكام القرآن:١١/٢٠ وروح المعاني:١٥/٢.

فاللام في (لك) لام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم أو ضمير السامع، عندما يكون المخاطب عالما بالكلام من السياق، فيكون ذكر اللام لزيادة تقوية الكلام وتبليغه إلى السامع، ولذا لم يحتج لذكر اللام أول مرة: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ فكان التقرير والإنكار مع ذكر لام تعدية القول أقوى وأشد.[١] بمعنى: لك أنت على التعيين والتحديد، فلم تقتنع وطلبت الصحبة وقبلت الشرط، وأهملت التحذير أول مرة ،كما يقال لمن يشدد عليه بالإنكار والزجر: لك أقول وإياك أعني.[٢] يقول الزمخشري:[٣] «فإن قلت: ما معنى زيادة: ﴿لَكَ﴾ ؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية».

٤-التنكير والتعريف:

ومباحث التعريف والتنكير للكلمات من المباحث الدقيقة، وذلك لأن لكل منهما مقاما لا يصلح للآخر، وقد استعملهما القرآن الكريم في أدق نكتها، وأجمل صورها.[٤] ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ البقرة:٩٦، فللتنكير في قوله: (حَيَاةٍ) حسن وروعة ولطف وقع، لا تجده مع التعريف، وقد أفاد التنكير أن الحرص هو على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها، وهذا لا يحرص عليه إلا الحي، فأما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها، فكأنه قيل: لتجدنهم أحرص الناس-ولو عاشوا ما عاشوا- على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه حياة في المستقبل، فالمعنى الذي يوصف الإنسان بالحرص عليه هو الذي لم يوجد بعد، ولا يصح وصفه بالحرص على ما هو موجود ولا على الماضي .[٥]

وشبيه به تنكير (حياة) في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩، فَحُسْنُ التنكير حاصل من أنه لما كان الإنسان إذا علم أنه إذا قَتَلَ قُتِل، ارتدع بذلك عن القتل، فسَلِمَ صاحبه، وصارت حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص، وصار كأنه قد حيي في باقي عمره به، أي بالقصاص.[٦]

١- التحرير والتنوير: ١٦/ ٥.

٢- أسرار التكرار في القرآن: ١٣٤ والتفسير الكبير: ١٥٥/٢١.

٣- الكشاف: ٢/ ٤٩٤ وينظر: تفسير البيضاوي: ٥١٣/٣-٥١٤ وحاشية الجمل: ٣٨/٣.

٤-ينظر لمزيد التفصيل:البرهان:٨٧/٤-٩٣، الإتقان:٢٩١/٢-٢٩٥وعلم التفسير أصوله وقواعده: المؤلف: ٢٠٥-٢١٢.

٥-دلائل الإعجاز:١٩٣.

٦-دلائل الإعجاز: ١٩٤.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ البقرة: ١٢٦، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ إبراهيم: ٣٥، فأتى بالألف واللام في تعريف: (البلد) في آية إبراهيم، وحذفها في آية البقرة، فجاء الاسم منكرا؛ لأنه في الدعوة الأولى: كان مكانا فطلب منه أن يجعله بلدا آمنا، وفي الدعوة الثانية: كان بلدا غير آمن فعرفه، وطلب له الأمن، أو كان بلدا آمنا، وطلب ثبات الأمن ودوامه.[١]

وكون سورة البقرة مدنية وسورة إبراهيم مكية لا ينافي هذا، لأن الواقع من إبراهيم كونه على الترتيب المذكور، والإخبار عنه في القرآن على غير ذلك الترتيب، أو لأن المكي: منه ما نزل قبل الهجرة، فيكون المدني متأخرا عنها، ومنه ما نزل بعد فتح مكة، فيكون متأخرا عن المدني.[٢]

٦- استخدام الألفاظ في مواضعها الملائمة:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ البقرة:٦٠، وقوله: ﴿ {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الأعراف:١٦٠، فقال في سورة البقرة: (فانفجرت)، وفي الأعراف: (فانبجست)، والانفجار أبلغ في كثرة الماء من الإنبجاس، وذلك لما كان مقام القصة في سورة البقرة مقام ذكر النعم التي أنعمها الله تعالى على بني إسرائيل ناسبه التعبير بـ(انفجرت)، إشارة إلى كمال تلك النعم، ولما كان المقام في سورة الأعراف مقام تقريع ومؤاخذه ناسبه: (انبجست).[٣] ولا تناقض بين الخبرين، فإن مبتدأ ظهور يكون انبجاسا، ثم يتسع فيتكامل فيكون انفجارا، فعبر في الأعراف عن مبتدئه، وفي البقرة بغايته.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ الأنبياء: ٨٧، وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ القلم: ٤٨ ، فوصف سيدنا يونس عليه السلام أولاً: (ذا النون)، وفي الثانية: (صاحب الحوت) والمعنى واحد، ولكن بينهما تفاوت في حسن الإشارة إلى الحالين، فإنه حين ذكره في موضع الثناء عليه قال: (ذا النون)، ولم يقل: (صاحب الحوت)، ولفظ النون أشرف، لوجود هذا الاسم في حروف الهجاء في أوائل السور نحو (ن والقلم)، وقد قيل: إنه قسم بالنون والقلم، وإنْ لم يكن قسما فقد عظمه بعطف المقسم به عليه، وهو القلم، وهذا الاشتراك يشرف هذا الاسم بما ليس

---

[١]-البحر المحيط :١ /٣٨٣، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل: محمد بن أبي بكر الرازي: ٢٨ والإتقان :٣/ ٣٤٣ .

٢ – البرهان: ٦٤/٢.

[٣] -البحر المحيط : ١/ ٢٢٨ والإتقان : ٣/ ٣٤٣ .

فيه. وليس في اللفظ الآخر (الحوت) ما في (نون). كما أن لفظ (نون) أرق وألطف من لفظ (الحوت).[1]

وفي قوله تعالى على لسان يوسف في خطابه لأبيه وإخوته لما اجتمعوا معه في مصر حيث قال في ذكره لنعم الله عليه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ يوسف:١٠٠، ولم يقل: (من الجب)، مع أن الخروج من الجب أعظم من الخروج من السجن. وإنما آثر هذا اللفظ لوجوه:

أحدهما: إن في ذكر الجب تجديد لفعل اخوته، وتقريعهم بذلك، وتذكيرهم بغوائلهم، واليوم قد اجتمعوا إليه وصفح عنهم، فناسبه عدم تفكيرهم بما فعلوا معه. انسجاما مع الصفح في قوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يوسف: ٩٢.

والثاني: إنه خرج من الجب إلى الرق، وخرج من السجن إلى الملك، والنعمة هنا أوضح.[2]

والثالث: قصر المدة في الجب وطولها في السجن.

والرابع: إن الجب كان في حال صغره ولا يعقل فيها المصيبة، والسجن كان في الكبر، فلا تؤثر مصيبة الجب كتأثير السجن في حال الكبر.

والخامس: أن أمر الجب كان بغيا وظلما لأجل أمر دنيوي وهو الحسد، وأمر السجن كان لعقوبة في أمر ديني، وهو منزه عنه، فكان أمكن في نفسه فأولاه بالذكر.[3]

وقد يعبر عن أمر واحد في موضعين متشابهين بوصفين مختلفين، ومن هذا التعبير عن الأرض قبل نزول المطر عليها وتفتحها بالنبات، ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج: ٥، فوصف الأرض بأنها (هامدة)، وقال: ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت: ٣٩ فوصفها بأنها (خاشعة)، وهذا ليس مجرد تنويع، وإنما تابع لمقتضى السياق، فاسمع لقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ

---

[1] –البرهان : ٤/ ٦٢ –٦٣ نقله عن : التنبيه والإعلام: السهيلي: ٨٣ .

[2] –المحرر الوجيز: ٢٨٢/٣.

[3] – مفاتيح الغيب: ٥١٢/١٨ ، البحر المحيط: ٣٢٨/٦ والبرهان : ٤ / ٦١ .

شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ الحج: ٥.

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت: ٣٧-٣٩.

وعند التأمل في السياقين يتبين وجه التناسق؛ إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج، وهذا يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة)، ثم تهتز وتربو فتنبعث فيها الحياة بعد موتها، والجو في الثانية جو عبادة وخشوع وسجود، ويناسبه وصف الأرض بأنها خاشعة[1].

وفي استعماله لفظة (تراب) وما يقرب منها، نجده حينما يراد تصوير أعمال الذين كفروا فإنه يشبهها بالرماد، يقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ إبراهيم: ١٨.

فهذه الآية تصور حركة الريح في يوم عاصف تسفو الرماد، وتذهب به بددا إلى حيث يستحيل جمعه أبداً، وكذلك أعمال الكافرين فإنهم لا يجدون منها شيئاً ينتفعون به يوم القيامة لأن أعمالهم لم تكن خالصة لله تعالى، فاستخدم لفظ (الرماد) لأنه المناسب تماماً مع الصورة التي يراد رسمها لأعمالهم، فهي (لا تتعلق بها الآمال) كالرماد المتناهي في الخفة حينما تشتد به الريح في يوم عاصف، يستحيل بقاء شيء منه، زيادة على أن الرماد هو من مخلفات الأشياء المحترقة، مما يناسب مآلهم وخاتمة أعمالهم، وإن اشتداد الريح به كان في يوم كامل، ولم يكن مجرد مرور، حتى لا يبقى منه أثر. وناسبه في النص أيضاً وصف الضلال بأنه بعيد، كابتعاد الرماد إلى أماكن سحيقة نتيجة اشتداد الريح به، فكان من المناسب تمام التناسب استعمال لفظ (الرماد) بدلاً من التراب.

بينما استعمل (التراب) في موضع آخر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة:٢٦٤، لا تنفعهم بشيء، فهي لا تثمر لهم نفعا، ولا تدفع عنهم عذابا، لأنها ليست خالصة لله، إنما يقدمون عليها رياءً، فكانت مثل تراب منثور على حجر أملس، يغطي ما تحته، حتى إذا

١- التصوير الفني :١١٨.

جاءه مطر عظيم ذهب به كل مذهب، وكشف عن حقيقة تلك البقعة من الأرض؛ هي صفوان لا تمسك ماءً، ولا تصلح تربتها للإنبات والإثمار. فصلح هنا استخدام لفظ (التراب) دون الرماد، زيادة على أن التراب بطبعه يدل على الامتهان.

وحينما كان المقام يختلف تماماً عن مقام الموضعين السابقين، وإنما يتعلق بمواضع علم الله تعالى استعمل لفظ (الثرى) في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ طه: ٥-٦، والثرى قيل بأنه التراب الندي، وقيل هو: ما لطف من التراب وطاب، وقيل غيره.[1] وكلها معان مناسبة للموضع.

وهكذا لفظ: (الجبل)، فمرة يستعمل هذا اللفظ، ومرة يستعمل (الأعلام)، ففي وصف (الفلك) ورد وصفها بقوله: (كالأعلام) فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ الشورى: ٣٢ وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ الرحمن: ٢٤، والأعلام هنا يراد بها (الجبال) بينما قال في سورة هود: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ هود: ٤٢.

فحيث كان المقام مقام تفضل وبيان للنعم استعمل لفظ (الأعلام) تعبيراً عن (الجبل)، لأن المراد إظهار جمالها وعظمها بما يحقق المنافع والزهو للناس.

وحيث كان المقام مقام بيان لعقابه الشديد، وإهلاكه لقوم نوح بالغرق، في سياق كله مبني على إظهار عظمة الله تعالى وقدرته البالغة في مؤاخذة الكافرين، ناسبه أن استعمال لفظ(الجبال)،ليتم به النسق كله في إبراز الصورة المخيفة والمرعبة التي تم بها إهلاك هؤلاء الكافرين، وقدرته تعالى الفائقة وعظمته البالغة التي لا تقهر ولا تغالب.

المبحث الثاني
الإعجاز في البلاغة والبيان

أولا. خصائص الأسلوب القرآني ومميزاته:

١- معنى الأسلوب:

يطلق الأسلوب في اللغة إطلاقات متعددة: فيقال: للفن، وللوجه، وللمذهب، وللطريق بين الأشجار، ولطريقة المتكلم في كلامه. وأنسب هذه المعاني بالمعنى الاصطلاحي هو: الأخير، أو الفن، أو المذهب مع التقييد .

---

١ – المعجم الوسيط : ٩٥.

الأسلوب في الاصطلاح: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه. أو هو بعبارة أخرى: المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه. أو هو: الفن الكلامي الذي انفرد به المتكلم.[١]

أسلوب القرآن: هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه. ولا غرابة أن يكون للقرآن أسلوبه الخاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، بل تتعدد الأساليب في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها .

٢-خصائص الأسلوب القرآني[٢]:

مهما حاولنا تحديد الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن ومزاياه التي توافرت فيه فجعلته معجزا، فإننا لا يمكننا أن نفي بها، فما هي إلا قُلّ من كُثْر، وقطرة من بحر، فالإحاطة بها ممتنعة، وما نذكره ما هو إلا على سبيل التمثيل.

الخاصية الأولى : مسحة القرآن اللفظية:

ونريد بها تلك السمة التي تتجلى في جماله اللغوي، والظاهرة العجيبة التي امتاز بها في رصف حروفه، وترتيب كلماته، دونه كل ترتيب.

وذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض، فهذا ينقر وهذا يصفر، وهذا يخفي وذاك يظهر، وهذا يهمس وذاك يجهر، إلى غير ذلك مما هو مقرر في مخارج الحروف وصفاتها، تتجلى في هذه المجموعة المؤتلفة المختلفة، التي تجمع بين اللين والشدة، والخشونة والرقة، حتى أنك لو أدخلت شيئاً من كلام الناس محل كلمة، أو قدمت وأخرت فيه لاختل النظام في آذان سامعيه، واعتل مذاقه في أفواه قارئيه.

الخاصية الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة:

فالقرآن إذا قرأته العامة أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم وعواطفهم، وإذا قرأته الخاصة أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه أكثر مما يفهمه العامة منه، وليس كذلك كلام البشر، فنظرة العامة إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ الطارق:٥-٧، تختلف عن قراءة عالم الحياة

١- الأسلوب: أحمد الشايب:٨ ومناهل العرفان:٢/٣٥١ وينظر: الإتقان:٤/ ٩.

٢- ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:الرافعي:٢٢٩، النبأ العظيم: ١٠٣، مناهل العرفان:٢/ ٣٥٨، التبيان في علوم القرآن:محمد على الصابوني: ١٠١، ومن بلاغة القرآن: د.أحمد أحمد بدوي: ٢٤٥.

(البيولوجي) لها. وقراءة العامة لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ الفرقان:٦١، غير قراءة اللغوي، وهما غير قراءة الفلكي، وكلها معان صحيحة داخلة تحت دلالة النص.[١]

الخاصية الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة:

فأسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع بين الحق والجمال، استمع إليه وهو يقيم الدليل العقلي على إمكانية البعث والإعادة، كيف يسوق استدلاله بأسلوب يهز القلب، ويحرك الوجدان، ويمتع العاطفة، ويقنع العقل، في آن واحد، يقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، –حتى قوله–: رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ق:٦–١١، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت:٣٩، فتأمل أسلوبه المحرك للعاطفة والمثير للوجدان، في الوقت الذي يخاطب العقل ويقنعه بالدليل على البعث في قوله: ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾، فيستقبل خطابه عقل الإنسان وقلبه معا بأنصع دليل، وأمتع عرض.

الخاصية الرابعة: ترابط الأجزاء وتناسب السرد:

وذلك ما نجده في جودة سبكه وإحكام سرده، فقد بلغ في ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغا لا يدانيه كلام البشر، رغم تنوع مقاصده، وتلون موضوعاته. فإذا تأملت في القرآن تبين لك تآخي كلمات الجملة، وتناسق جمل السورة، وتناسب السورة مع السور الأخرى، في وحدة متشابكة متعانقة، جعلت منه كتابا سَوِيَّ الخَلْق حَسن السَمْت، كأنما هو سبيكة واحدة وسلسلة متعانقة الحلقات: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الزمر:٢٨ .

الخاصية الخامسة : براعته في تصريف القول :

ونعني بها ثروته في أفانين الكلام، وذلك بأن يورد المعنى الواحد بألفاظ وطرق مختلفة تنقطع دونها أنفاس الفصحاء والبلغاء، من ذلك تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بوجوه عدة متنوعة منها الحقيقة ومنها المجاز. ومنها اللفظ الصريح وغير الصريح، وهكذا تعبيره عن النهي، وعن الإباحة، وغيرها، بأساليب وطرق متنوعة، بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، وتكلم وغيبة وخطاب، وحضور ومضي واستقبال، واسمية وفعلية، ونحوها، بحيث يخلق على الأسلوب جدة وروعة، ولباسا فضفاضا، ومسحة جمال، وحلاوة لا يمل منها القارئ ولا يسأم، بل تجده في

١ – من روائع القرآن:البوطي : ١٣٦ .

انتقاله من أسلوب إلى آخر، ومن نمط كلام إلى نمط آخر، سريعا لا تحس معه بالانتقال والتغيير فيه.

الخاصية السادسة: جمعه بين الإجمال والبيان:

فمع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد من الناس، فإنهما اجتمعتا في القرآن، فإنك إذ تسمع أو تقرأ الجملة فإذا هي بينة مجملة، بينة لأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس دون عناء تنقيب لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معان جديدة كلها صحيحة أو تحتمل الصحة، وكلما أمعنت أكثر زادتك من المعارف والأسرار أكثر، على حد قول القائل :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

وبهذه الخاصية وجد كل أصحاب المذاهب والفنون بغيتهم فيه، ووسعهم جميعا.

الخاصية السابعة: قصده في اللفظ مع وفائه بالمعنى:

ومعنى ذلك أنك تجد في كل جمل القرآن بيانا وافيا بحسب ما تحتاجه النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من الهداية، فلا تجد لفظا دخيلا أو زائدا على المعنى .

إن القرآن يستثمر دائما وبرفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي في ذلك مواضع إجماله وإطنابه، ولا يمكن تأدية تلك المعاني كاملة العناصر والحلي بأقل أو أكثر من ألفاظه.

ولذلك فليس حقيقا ما يصفه بعضهم بالزيادة أو الإقحام لبعض الحروف والكلمات، زيادة معنوية غرضها التأكيد، وقد يكون الموضع ليس بحاجة إلى مثل هذا التأكيد.

ولنأخذ هذا المثل الذي أورده في مثل هذا الموضع (د. محمد عبد الله دراز) وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى:١١.

فقد ترادفت كلمةُ أكثرِ أهل العلم على زيادة (الكاف)، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فراراً من المحال العقلي الذي يفضي عليه بقاؤها على معناها الأصلي في التشبيه، إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية التشبيه عن مثل الله، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه، تقول: (ليس لفلان ولد يعاونه) إذا لم يكن له ولد قط، أو كان له ولد لا يعاونه.

وقليل من العلماء من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها، لكنهم عللوا لها بعلل لا تثبت لها فائدة. وإنما هي من قبيل تصحيح الكلام.

أما البيان السليم لمعنى هذا التركيب فهو من طريقين، أحدهما أدق مسلكا من الآخر:

الطريق الأول: وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: وهو أنه لو قيل: (ليس مثله شيء) لكان نفيا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب؛ لأن هذا المعنى هو الذي ينساق إليه الفهم من إطلاق لفظ المثل، وعندها فقد يدب إلى الأوهام، أنْ لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وعسى تكون للأنبياء أو الملائكة أو غيرهم، فيكون لهم بالإله الحق شبهٌ ما، فكان وضع هذا الحرف إقصاء للعالم كله عن المماثلة، وعما يشبه المماثلة، أو يدنو منها، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فكأنه قال: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً له، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة.

الطريق الثاني: وهو أدق مسلكاً، وهو أن المقصود الأول من هذه الجملة –وهو نفي التشبيه– وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: (ليس كالله شيء) أو: (ليس مثله شيء) ولكن هذا القدر ليس كل ما ترمي إليه الآية، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم، فإنها تريد أيضاً أن تلفتك إلى وجه حجته، وطريق برهانه العقلي.

لأنك إذا أردت أن تنفي نقيصة عن امرئ في خلقه فتقول: (فلان لا يكذب ولا يبخل) فإن قولك هذا سيكون دعوى خالية من الدليل، فإذا زدت فقلت: (مثل فلان لا يكذب ولا يبخل) لم تكن مشيراً إلى شخص آخر يماثله في ذلك، بل كان تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشمائله الكريمة لا يكون كذلك. لوجود التنافي بين هذه الصفات العالية التي هو عليها وبين هذه الصفات الذميمة.

وعلى هذا المنهج البليغ وضعت الآية الكريمة قائلة: (مثله تعالى لا يكون له مثل) بمعنى أن من كانت له تلك الصفات العليا، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، لا يمكن أن يكون له شبيه ومثل، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه، فلا جرم جيء فيها بلفظين كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة، ليقوم أحدهما ركناً في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهاناً، فالتشبيه المدلول عليه بـ(الكاف) لما تصوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب، ولفظ (المثل) المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب. (١)

الخاصية الثامنة: التصوير:

والقرآن إذ ما ينقل الحوار أو يورد القصة يبعث فيها الحياة، ويجسد الأمور المعنوية في صور شاخصة متحركة تكاد تشاهدها. ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس

١–النبأ العظيم:١٢٧–١٣٥بتصرف. وينظر: الكشاف وتفسير النسفي:١٠١/٤.

يزيده تمكناً في النفس، فاستمع إلى قوله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ القمر:١١-١٤، فهو ينقل الحقيقة مصورة، إنه ليس ماء عادي إذن هذا المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض، إنه قدر، إنه ماء يتم بقدر، تسبح فيه الروح بكل سبحاتها، ويلامس فيه الخيال صورته الحسية المشاهدة. وقد سبق معنا أمثلة للتصوير بالتشبيه والاستعارة، بما فيها من تجسيم وتشخيص وحركة.[١]

الخاصية التاسعة: تلوين الأسلوب بين القوة واللين:

كما يتسم الأسلوب القرآني بالهدوء عندما يتطلب الأمر هدوءً وتأملا وتدبرا، كما في الآيات التي تدعو إلى إعمال الفكر، وفي القصص والأحكام. وحينا يتدفق الأسلوب ويندفع في جمل قصيرة، مثيراً بذلك الانفعال السريع العنيف، وذلك حينما يتطلب هجوم الحق على الباطل بعنف مثير، كما في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ المدثر: ١١-١٧.

أو عندما يتطلب الأمر إسراعاً في القيام به، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ المدثر:١ -٧.

الخاصية الحادية عشرة: أسلوبه الخاص في الفواصل:

فمنه المسجوع ومنه المرسل، وهو في كليهما يخالف غالبا ما ألف الناس في السجع والإرسال، فالقرآن قد يلتزم حرف السجع في أكثر من آيتين، وقد تكون السورة كلها على حرف واحد، كسورة القمر، وقد يأتي بين الجمل المسجوعة بجملة لا تتفق فاصلتها مع ما سبقها ولحقها، وكأنما تلك الكلمة تتطلب عناية خاصة، تستدعي قدراً كبيراً من الرعاية، بما تثيره هذه المخالفة لنسق الآيات من وقفة تدبر وانتباه زائد، وقد تتفق الفواصل في الوزن لا في الحرف الأخير، مثل: قضباً، ونخلاً.

وقد تكون الجملتان المسجوعتان قصيرتين متوازنتين في القصر، وقد تكونان طويلتين متوازنتين في الطول، بحيث لا يبقى من مظاهر السجع سوى الفاصلة، أما الآيات نفسها فمرسلة، وإن كانت لا تتفق مع مرسل كلام الناس لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة في آخرها، وقد تتوازن الآي القرآنية من غير سجع.[٢]

١- التصوير الفني : ٣٦ والمعجزة الكبرى : أبو زهرة : ٩٩ .

٢ -الإتقان:٣/٣١١.

ثانيا: وجوه من البيان القرآني:

في هذا الموضع نشير إلى أمثلة سريعة تبرز سمات البيان القرآني ووجه الإعجاز فيه.

١) دقة التنويع في استخدام الألفاظ في القرآن:

إن القرآن الكريم يستعمل الألفاظ المفردة استعمالا خاصا، ويصطلح فيها اصطلاحات لا يلتفت إليها الكثير من الناس، وهو استعمال مقصود فيه لا يتخلف، ومن هذا الاستعمال القرآني المميز:

إن كلمة (عين) تجمع في اللغة على(أعين) وعلى(عيون)، ويفرق القرآن في استعماله للجمعين، فهو يستعمل كلا منهما في موضع غير ما يستعمل فيه الآخر. فالعيون يستعملها دائماً بمعنى عيون الماء، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الحجر:٤٥، وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ يس: ٣٤. وأما: (الأعين) فيستعملها بمعنى الأعين الباصرة، نحو: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الأعراف: ١٧٩، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ غافر١٩، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ الأنبياء:٦١.

ويستعمل غالبا (الريح) مفردة في مقام العذاب والانتقام، ولا يستعملها للرحمة إلا بصيغة الجمع (الرياح)، قال سبحانه: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْه﴾ آل عمران: ١١٧، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الأحقاف: ٢٤. وقال في (الرياح): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾ الأعراف: ٥٧، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ الحجر: ٢٢، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ الفرقان: ٤٨، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ الروم: ٤٦.

وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يونس: ٢٢، فوصف الريح أولا بالطيبة؛ فذلك لأنها متبوعة بالريح العاصف، فلم تكن الأولى طيبة في عاقبتها، وإنما هي كالاستدراج لهم، حتى إذا ما اطمأنوا انقلبت عليهم عذابا.

ولا يستعمل لفظ (المطر) إلا في مقام العذاب والانتقام، وإذا كان المقام مقام رحمة وعطاء استعمل لفظة (الغيث)، دون أن يتخلف هذا في القرآن كله.

ومنه استعمال كلمتي (حلف، وأقسم)، فإن القرآن يفرق بينهما، تقول د. عائشة عبد الرحمن: «لا يهون أبداً أن تفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن يُلْفِت إلى فرق وثيق بينهما، فإن لم نقل إن القسم اليمين الصادقة حقيقة أو وهماً، والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها. فلا أَقَلَّ أن يكون بين

دلالتهما الفرق بين العام والخاص، فيكون القسم لمطلق اليمين بعامة، ويختص الحلف بالحنث في اليمين على ما اطرد استعماله في البيان القرآني»[1].

ومثاله: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ﴾ القلم١٠، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ المجادلة:١٨. وقال: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة: ٧٥-٧٦، ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ الفجر: ٥. ومن استعمال القسم لليمين للكاذبة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٣٨.

ومن دقائق استخدام القرآن الكريم التي توحي بمعان زائدة على دلالتها الظاهرة استعماله لكلمة: (يشاق) فإن القرآن يفك إدغام القاف إذا كان الحديث عن مشاققة الكافرين لله ولرسوله، أما إذا اقتصرت الآية على ذكر مشاقتهم لله سبحانه، ولم يرد ذكر الرسولﷺ معه، فإنه يوحد الحرف ويبقيه على إدغامه. اسمع إليه:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الحشر:٤. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال:١٣، وأما قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ النساء:١١٥، فإن المذكور هو الرسول، ومشاقة الرسول هي تتضمن مشاقة الله.

وهكذا يتبين لنا كيف أن القرآن كان يتأنق في اختيار الألفاظ، ويستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً.

٢) تناسق اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعاني في بناء النص:

إن الكلمة لا تكتسب صفتها الذاتية، ولا تحمل شحنتها النفسية من شعور القائل المجرب إلا إذا كانت في سلك من النظم، وعشيرة مع الكلمات، وإلا إذا دلت على نفسها بأخواتها، فتتشابك الأفكار، وتتعانق الألفاظ، وينبني التركيب بالصور والتأملات، وهذا هو الأسلوب الذي فاق به القرآن وأعجز. والإئتلاف لا يتم له الحسن إلا إذا اشتمل على صورتين من الملائمة.

الأولى: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها مع بعض، بأن يقرن الغريب بمثله، والمتداول بشبهه؛ رعاية لحسن الجوار والمناسبة.

١- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ٢٠٧.

الثانية: أن تكون ألفاظ النص ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت الألفاظ فخمة، أو جزلا فجزلة، أو غريبا فغريبة، أو متداولا فمتداولة، أو متوسطا بين الغرابة والاستعمال فكذلك.

ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يوسف: ٨٥، فإن إخوة يوسف يعجبون من أبيهم، ويستغربون أشد الاستغراب من استمراره بذكر يوسف، وعدم انقطاع أمله في عودته بعد كل ما حصل له، وما كان منهم معه، وبعد طول الزمان، فجاءت الألفاظ متناغمة مع المعنى، حيث بنى النص المعبر عن هذا الاستغراب منهم على ألفاظ غريبة، فأتى بأغرب ألفاظ القسم، وهي التاء، فإنها أقل استعمالا وأبعد عن أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار (تفتأ)، فإن (تزال) أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالا، وبأغرب ألفاظ الهلاك، وهو (الحرض)، فجاء حسن النظم بتجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة، وتآخي أصوات الحروف والحركات والسكنات في تأثيرها، توخيا لحسن الجوار، وائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم.[1]

ومما حسن في القرآن دون غيره كلمة (ضيزى) من قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ النجم: ٢١ – ٢٢.

فكلمة (ضِيزَى) هي أغرب كلمة في اللغة، ولم تستعمل في لسان العرب لثقلها وعدم حسنها عندهم إلا نادراً، بل قد لا تجد لها استعمالاً في شعرهم مطلقاً، ومع هذا جاءت في القرآن لها من الحسن ما يبعث بالإعجاب، وأن حسنها فيه يأتي بسبب وشيجتها مع أخواتها، وانسجامها في موضعها، وقد أظهر الرافعي سر حسنها بقوله: ولحسن هذه الكلمة في هذا الموضع عدة اعتبارات:

١–إن السورة التي وردت فيها هذه الكلمة قد جاءت ألفية الفواصل كلها، فجاءت الكلمة: (ضيزى) ذات نغم صوتي ملتئم مع فواصل الآي الأخرى، ولو وضع كلمة: (جائرة) موضعها وهي قسيمتها في الدلالة لجارت على الموضع، وفاتت المناسبة وحسن الجوار، فجيء بها لذلك الالتئام والتناسق الصوتي الذي لا يخفى أثره.

٢–إنها جاءت معلقة على سلوك معيب وغريب، حيث جعلوا لله الإناث سبحانه ولهم الذكور، مع الإصرار على قتلهم البنات، كما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى، إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

١– الإتقان:٣/٢٦٢.

سُلْطَانٍ﴾ النجم: ١٩-٢٣، وقوله عنهم في موضع آخر: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ النحل: ٥٨- ٥٩، فعبرت عن غرابة قسمتهم بغرابتها اللفظية. (١)

فغرابة اللفظ في نفسه يعبر عن غرابة القسمة، وينسجم مع المعنى الذي يؤديه على أتم وجه وأكثره وقعاً في النفس.

٣) ظاهرة التكرار في القرآن:

من الظواهر التي تلفت النظر في القرآن ظاهرة التكرار، وهذه الظاهرة قد تكون أشد وضوحاً في السور المكية منها في السور المدنية، مع أن السور المدنية لا تخلو منها.

أسباب التكرار ووظائفه :

إن ورود التكرار في القرآن ليس اعتباطيا، وإنما له هدف مقصود، ووظيفة يؤديها في النص، ويمكن إرجاع أسباب التكرار إلى أمرين عامين:

أحدهما: ديني يتعلق بطبيعة القرآن نفسه، فالقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، جاء ليربي هذه الأمة، ويرشد البشرية كافة إلى الدخول في هذا الدين، ومن يمارس التربية يعلم مدى حاجته إلى التذكير الدائم حتى يستقيم الأمر: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات: ٥٥، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق: ٣٧.

فالغرض من التكرار هو تقرير المكرر وتوكيده، وإظهار العناية به، ليكون في السلوك أمثل، والالتزام به أبين. وقد نبه تعالى على السبب الذي لأجله كرر القصص والإنذار في القرآن بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ طه: ١١٣، ولذا يقول النسفي: «كل تكرير ورد في القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره». (٢)

ثانيهما: فني أدبي، فللتكرار في القرآن وظيفة ظاهرة يؤديها في البناء الفني والأدبي للنص، سواء في زيادة معان ثانية، أو إتمام الصورة الفنية، أو لغيرها من الأسباب، وهي كثيرة، وكلها تصب في مجرى تأكيد المعنى وتوضيحه، وإضفاء الحركة والحياة عليه.

١-إعجاز القرآن: الرافعي: ٢٦٢ وفي ظلال القرآن: تفسير سورة النجم، وخصائص التعبير:١/ ٢٤٩.

٢- تفسير النسفي: ١٠/١. نقله من كلام الزمخشري.

وأن هذين السببين للتكرار (المعنوي والفني) هما متلازمان في بنية النص القرآني، لأن محاولة تصور اللفظ منفصلاً عن المعنى غير ممكن، كما أن المعنى غير منفصل عن فن التعبير في الأسلوب، ولذا فإن الكلام عن الوظيفتين لا يمكن انفصاله عن بعض.

سمات التكرار في القرآن:

١-إن العبارات التي وردت بنصها أكثر من مرة هي قليلة، ومع ذلك فإنها تؤدي رسالة معنوية وفنية في النص الذي وردت فيه، مثاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ في موضعين في التوبة: ٧٣، وفي التحريم: ٩، وقد تكررت لأمر مقصود، هو شحذ الهمة لمقاتلة الكفار والمنافقين، وذلك لاقتضاء السياق في السورتين لذلك.

وجاءت حكاية قول الكفار: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في سورة: (يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل:٧١، سبأ: ٢٩، يس:٤٨، الملك:٢٥). ووردت بصيغة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ السجدة: ٢٨، كذلك جاء حكاية طلبهم الآية في أكثر من موضع: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الأنعام:٣٧، و﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يونس: ٢٠، و﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الرعد: ٧، و٢٧، و﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ العنكبوت: ٥٠. ونحوه.

والمقصود من هذا التكرار الإشعار بأنهم يكثرون من ترديد هذه الأقوال، ويلحون في التحدي وفي طلب الآية.

٢- إننا حين نتلو القرآن الكريم فإننا لا نجد تكرارا حقيقيا بالمعنى المفهوم من اللفظ، إنما نجد ظاهرة أخرى، هي تستحق منا النظر من حيث الجمال الفني في التعبير، ومن حيث هي لون من ألوان التأثير الوجداني الفريد، هي ظاهرة (التنويع) في العرض والتصوير. ولذا فإن الأولى تسمية هذه الظاهرة بالتنويع لا بالتكرير[١].

٣-إن ما يسمى تكرارا في القرآن هو ليس (تماثلاً) بين النصوص، وإنما هو (تشابه)، إذا تمعنت فيه وجدت أنه شبيه بثمار الجنة: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ البقرة: ٢٥. فظاهره يشبه بعضه بعضا، حتى إذا تناوله وجده مختلفا مذاقا، فهو يشبهه لكنه لا يماثله، مما يجعلهم يعيشون في مذاقات متجددة على الدوام يفاجئون بها، وهكذا فن التعبير في القرآن.

١- دراسات قرآنية : محمد قطب: ٢٥٤ .

٤-إن التنوع في العبارات المتشابهة يأتي متسقاً مع التنوع في الخلق، والتلون في الموضوع، مثاله التعبير عن اختلاف الألوان بعبارات مختلفة في الصيغة انسجاماً مع اختلاف الألوان وإشارةً إليه. وذلك كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر: ٢٧- ٢٨. كيف نوع في:

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ فاطر: ٢٧.

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ فاطر: ٢٧.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ فاطر: ٢٨.

فيكرر العبارة اللغوية الواحدة في موضع بثلاث صيغ، منوعاً لها مع كل نوع من أنواع الخلق، ويلاحظ أنه حينما يكون الحديث عن إنبات الزرع وإخراج الثمرات يأتي بكلمة (مختلفاً) منصوبة، ومثاله أيضاً: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ النحل:١٣، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ الزمر:٢١، ونظيره هذا قوله: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ الأنعام: ١٤١.

أرأيت الإبداع في التعبير، إنه بهذا التكرار كان معجزاً، فتنوع الصيغة يلفت الحس البشري إلى ظاهرة التنوع في الخلق فيكرر اللفظ وينوعه مع تكرر الخلق وتنوعه.

٥-أكثر الموضوعات التي ورد فيها التكرار هي موضوعات العقيدة، وما كان مسوقاً بالأصل لغرض عقيدي، مثل قصة آدم وإبليس وقصص الأنبياء، وأخلاقيات الإيمان.

٦- ثم إن كل سورة من السور القرآنية لها شخصيتها المميزة وجوها الخاص، وإن كل نص من نصوص القرآن وإن بدا متشابهاً فإنه يأخذ جو السورة التي يرد فيها، ومن ثم تكون له ملامحه الخاصة في كل مرة، أحياناً بتقدم كلمة أو تأخرها، سواءً بنفسها، أو بعد تغيير في ملامحها أو بزيادة كلمة أو حذفها أو بنحو ذلك، فلا يتكرر النص بنفسه، ولا تجئ الملامح مرتين متماثلة، إنما يحدث في كل مرة نوع من التغيير مثاله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل:١٤، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فاطر:١٢، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الكهف:٥٤، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ الإسراء: ٨٩. فإذ افتتحت سورة الكهف بالحديث عن القرآن قدم فيها ذكر القرآن، ولما كانت سورة الإسراء قد افتتحت بالحديث عن الناس قدم ذكرهم في آية الإسراء.

وجوه التكرار في القرآن:

أ) تكرار الأداة:

ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل: ١١٠.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ النحل:١١٩.

فيلاحظ في الآيتين تكرار الأداة (إنّ) مع اسمها في كل آية مرتين، والظاهر الاكتفاء بإيراد (إن) في المرة الأولى. والسبب في هذه الإعادة هو: طول الفصل بين الأداة وخبرها، مما يشعر بتنافيه مع الغرض الذي جاءت من أجله (إن)، وهو التوكيد. لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما هو حقها من التوكيد، تطرية له وتجديدا لعهده. ثم هناك سبب آخر، هو فني، وهو: الفارق فيما بين البنائين؛ النظم الذي عليه النص القرآني، وفيما إذا أسقطت (إنّ) عنه، فبينهما فرق ظاهر من حيث التناسق وقوة التعبير في الأول، وضعف وركاكة في الثانية[١].

كذلك فإن التكرار الذي اقتضاه طول الفصل هو متناسق مع طول الفاصل الزمني الحاصل بين العملين؛ فتنة أو سوء عمل في زمن، ثم توبة وعودة في زمن آخر، وفي مجيء (ثم) في الآيتين التي تفيد تراخياً يشعر بذلك، فإن العمل الذي يقتضي المؤاخذة كان في زمن، ثم كان العمل الذي ترتبت عليه المغفرة والرحمة. مما ناسبه تكرار الأداة تبعاً للاختلاف والتنوع في الزمن والعمل.

ب) تكرار الكلمة :

مثاله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ النمل:٥، فقد تكرر الضمير (هم) مرتين، وهذا التكرار فائدته تقوية المعنى وتأكيده.

ومثله أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الرعد: ٥. فقد تكررت (أولئك) ثلاث مرات، تبين الأولى كفرهم بربهم، والثانية تبين أنهم لا طريق لهم إلى الهدى لأن الأغلال في أعناقهم، والثالثة تبين مصيرهم يوم القيامة.

فهي مكررة بتعدد المعاني واختلافها، مع أنها تكسب النص جمالاً وحسناً لا تجده لو أسقطت إحداها، كما أنها تقوى المعنى وتؤكد النسبة في المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم.

ومثله قوله في المتقين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ البقرة: ٥. ففي تكرار اسم الإشارة (أولئك) تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح.[٢]

١- المثل السائر: ابن الأثير:٧/٣، الإتقان:٢٠٠/٣وخصائص التعبير القرآني :٣٢٣/١.

٢- تفسير النسفي ١٥/١

ومما يوضح لنا أن التكرار للكلمة في القرآن هو مقصود قصداً معنوياً، أننا نجده يكرر كلمة في موضع ولا يكررها في موضع آخر قريب منه، ومن هذا قوله في قصة إبراهيم وعلى لسانه عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ الشعراء: ٧٨-٨٢ .

فنجد أنه سبحانه كرر الضمير (هو) في مواضع من النص ولم يأت به في مواضع، فلم يقل: وهو الذي يميتني وهو يحيين. كما لم يقل: هو الذي خلقني، مع أنه قال: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ و﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾. و﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ونكتته: هي أن الضمير (هو) يفيد توكيدا، والتوكيد للجملة يؤتى به عند الحاجة إليه، مثل وجود شك أو إنكار من المخاطب، أو ما يُنَزّل منزلتهما، وعلى هذا الأساس جاءت بنية هذه الجمل في النص القرآني، فحينما لا نجد من يدعي فعل مثل هذا من البشر، ولا ينكر أحد أنه فعل ممحض لله وحده، لا نكون بحاجة إلى تأكيد، (فالخلق والإماتة والإحياء) لا أحد يدعيها، فلا حاجة إلى تأكيد أن المانح والفاعل لها هو الله وحده.

وأما إذا كان الفعل مما قد تجد من يدعيه لنفسه تكبراً وبطراً على الحق من البشر، فإنه يأتي به مؤكداً بالضمير كما في قوله: (هو يهدين، هو يطعمني، هو يشفين)، فأتى بالضمير وكرره في هذه المواضع، لأن هناك من يدعي أنه هو الذي يهدي الناس، ومنهم من يدعي منح الرزق وإعطائه، ومنهم من يدعي الإشفاء للآخرين، وأن من الناس من يظن بأن من هداه هو فلان من الناس، ومنهم من يظن بأن الرزق بيد بعض البشر، وأن الذي يشفي ويعافي هو الطبيب، ويغفلون أن هذه أسباب، وأن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه، ولو شاء لما تمكن هؤلاء من إيصال ما جعلهم سببا في إيصاله.

لهذا نجد القرآن كرر الضمير مع كل واحد من هذه الأمور تأكيداً على أن الفاعل هو الله، وقطعاً لكل ظنة تصور أن له شريكاً في فعل ذلك. ولم يأت بالضمير مع الإحياء والإماتة والخلق لعدم الحاجة إلى التوكيد هنا بسبب عدم وجود المقتضى.[١]

وفيها ملحظ آخر، وهو إسناد هذه الأفعال إلى الله تعالى، سوى المرض فقد أسنده إلى نفسه، أدبا في الخطاب مع الله تعالى، لأنه من الأدب إسناد أشرف قسمي أفعاله تعالى إلى نفسه، وإسناد أفعال العيب والضر وأمثالهما إلى الفاعل المجازي، من باب الأدب مع الله تعالى. [٢]

---

[١]- ينظر: المحرر الوجيز: ٢٣٥/٤، البحر المحيط: ١٦٥/٨ وحوار مع صديقي الملحد: مصطفى محمود: ٧٠.

[٢]- ينظر: المحرر الوجيز: ٢٣٥/٤، الجامع لأحكام القرآن: ١١٠/١٣ وكتابنا (أدب الخطاب في القرآن الكريم).

ومنه قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة: ٧. فكرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع، ليدل على شدة الختم في الموضعين.[١] وكرره مع (الأبصار) ليفيد شدة الغشاوة عليها .

ج) تكرار الفاصلة:

وقد ترد الفواصل مكررة في القرآن الكريم، وهذا التكرار قد يرد مرتين، وقد يرد ثلاث مرات، وقد يرد أكثر من ذلك. وكله يعود إلى تعدد المتعلق، بأن يكون المكرّر ثانيا متعلقا بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد.

وهذا ما نجده بارزاً في سورة القمر وسورة الرحمن وسورة المرسلات، فنجد الفاصلة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تكررت في سورة القمر أربع مرات، (الآيات: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠) عقب قصة قوم نوح وانتهائها بنهايتهم المرعبة وبأسلوبها العجيب، ولدى افتتاح قصة عاد، بقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ القمر: ١٨. وعقب ذكر قصة إهلاكهم بالريح الصرصر بعد عتوهم وتركهم: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ القمر: ٢٠-٢١، وإعادتها في قصتهم إخراج لها مخرج الاهتمام، وإشارة إلى أن التكذيب عاقبته العذاب والهلاك، فابتدأ القصة بهذا التنبيه، ثم كرره كالتقرير لما أخبر عنه. ثم جاءت هذه الفاصلة رابعة مع قصة ثمود ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ القمر: ٢٩-٣١.

وهذا التكرار لمثل هذه الفاصلة في هذه السورة يناسبها تماما، فهي من السور التي بنيت على الإنذار والتهديد لمن يحارب الله ورسوله، والوعيد الشديد لهم بالعذاب، فجاءت سريعة الإيقاع، قصيرة الفواصل، قوية الألفاظ، وجاءت بقصص أولئك الأقوام المكذبة وما حصل لهم من الإهلاك بصور عجيبة، وكيفيات مرعبة وغريبة، وهي مع أنها صور إهلاك متنوعة، إلا أنها كلها تنتهي إلى نهاية واحدة، هي هلاكهم هلاكاً مفزعاً وهم غافلون، يبعث خبره على التعجب، ووصفه على شدة الاستغراب، بحيث يترك الخيال سارحا في استكناه كنهه، وتصور شدة وقعه. فتكرار الفاصلة نفسها مع هذا القصص إشارة إلى أن خاتمة المكذبين المتكبرين واحدة، مع مناسبة هذه الفاصلة للموضوعات التي جاءت تعقيباً عليها، وتناسقها مع إيقاع الفواصل في السورة كلها.

ومما حسن هذا التكرار للجملة تكرار متناغم معه في السورة، هو تكرار فاصلة أخرى هي: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠. فهي دعوة مناسبة لجو

---

[١]- تفسير النسفي: ١/١٧.

السورة، تدعو للتأمل فيما يسوقه الله من قصص، والاعتبار بحال أولئك الأقوام. يقول الزمخشري:« كُرّر ليجددوا عند سماع كل نبأ منها اتعاضا وتنبيها، وإن كلا من تلك الأنباء مستحقٌ لاعتبارٍ يختص به، وأن ينبهوا كيلا يغلبهم السرور والغفلة».[1] ثم تكرار فاصلة ثالثة مرتين، هي ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٧، ٣٩)، متناسقة معها، لتشكل جميعها لحنا جميلا، وترادادا يزيد الإيقاع نسقا ومتعة، ويلقي على الجو العام للسورة رهبة وخشوعا.

وأما التكرار في سورة الرحمن فقد تكررت الفاصلة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، حيث تكررت (٣١) مرة. وقد تميز التكرار في هذه السورة بأمور من أبرزها:

١- إن التكرار فيها هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن الكريم .

٢- إن مما حسن التكرار في هذه السورة، أنه قد مهد له تمهيدا رائعا، حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية متحدة الفواصل، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة: (الميزان) ثلاث مرات متتابعة، ودونما نبو أو ملل: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ الرحمن: ٧-٩، مما أشاع في جو السورة لحنا موسيقيا متناسقا، هو بمثابة مقدمة طبيعية لتناغم يعقبه، متآلف في إيقاعاته ومتناسق مع ما قبله، مما يجعل النفس تألفه وتأنس به، دون أن تفاجأ به.[2]

٣-إن الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النعم على الخلق، فجاء عقب ذكر كل نعمة أنعمها على الخلق بعبارة: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حثا لهم على شكر نعمه، وتذكرها وعدم نسيانها. وكل فاصلة هي تتعلق بالنعمة التي قبلها، لا أن الجميع عائد إلى شيء واحد. وكأنه يقول: فإن نسيت تلك النعمة فهل هذه تنسى، وإن شغلت عن هذه فهل بعد مثل هذه تشغل عن شكرها. وهكذا. كما يقال: زيد عالم، زيد فاضل، زيد متعاون، زيد عاقل، وتسرد صفاته، فهذا ليس تكرارا، وإنما لزيادة التأكيد في استحقاقه للتقدير والإكرام، وكأنه مما لا يصح ولا يجوز عقلا وعادة أن يغفل حقه.

٤- إن هذه الجملة جاءت عقب زواجر وتذكير بالعذاب، وهي في ظاهرها ليس من النعم، كقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الرحمن: ٣١-٣٦، وحتى

١- الإتقان:٢٠٢/٣.

٢- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية : ٣٢٩/١.

قوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الرحمن: ٤١-٤٥ فكيف جيء بهذه الجملة عقبها، فنقول: ذكر النقمة للتحذير نعمة، فإن ذكر جهنم والعذاب وإن لم يكونا من النعم، فإن ذكره لهما على طريقة الزجر عن المعاصي، والترغيب بالطاعات من الآلاء والنعم، فإن التهديد والزجر ربما يكون أعظم في النعمة.

وأما التكرار في المرسلات، فقد تكررت فيها جملة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات[1]، وهذا التكرار مع اتصافه بمثل ما جاء عليه القول في سورتي القمر والرحمن، فإن له هنا هدفا عاما اقتضاه، وأسلوبا خاصا يميزه. وقد ابتدأت السورة تمهد لهذا التكرار بذكر مظاهر كونية، هي الرياح التي يصرفها سبحانه كيفما يشاء، يجعلها نقمة مرة، ويجعلها رحمة تأتي بالمطر مرة أخرى، إنذارا و تبشيرا، وما يزامن ذلك من إرسال الرسل بالذكر: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ المرسلات: ٦، ثم بالانتقال إلى الإخبار عن صدق الوعد بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ المرسلات: ٧، تبعه وصف العالم عند وقوع ذلك اليوم الموعود، الذي هو يوم الفصل، وتكرار كلمة الفصل: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ المرسلات: ١٣-١٥، ثم تأتي هذه الفاصلة تتكرر بعد كل مشهد من مشاهد يوم القيامة، وصور الحشر وأحداثه المتنوعة، وكأنها هنا تشير إلى تنوع ما يناله المكذبون من العذاب وصنوف المهانة والذل، بتعدد وتنوع المواقف والمشاهد يوم الفصل يوم القيامة، وتهدد وتتوعد من كذب بكل قصة ومشهد أتبعه هذا القول، وكأنه يقول عقب كل قصة: ويل يومئذ للمكذب بهذه القصة والمشهد.

ثم كيف مهد لهذا التكرار بمجيئ أفعال متتالية تنتهي كلها بتاء مبسوطة ثم تكرار كلمة (الفصل): ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ، لِيَوْمِ الْفَصْلِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ المرسلات: ٨-١٥. ليحسن التكرار بعدها بما تمهد له.

ومثل ذلك ما جاء في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الشعراء:٨-٩، فقد كررت ثماني مرات[2]، مرة عقب كل قصة، لتشير في كل مرة إلى قصة النبي المذكور قبلها، وما اشتملت عليه من العبر والآيات، وبقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

١- سورة المرسلات، الآيات: (١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩).

٢- سورة الشعراء، الآيات: (٨-٩، ٦٧-٦٨، ١٠٣-١٠٤، ١٢١-١٢٢، ١٣٩-١٤٠، ١٥٨-١٥٩، ١٧٤-١٧٥، ١٩٠-١٩١).

مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قومه خاصة؛ لأن كل نبي منهم كان قد آمن به قليل، ولذا جاءت الفاصلة بذكر وصفي العزيز الرحيم، للإشارة إلى الفريقين: الكافرين والمؤمنين.

د) التكرار في القصة :

والتكرار في القصة هو أهم ما يميز التكرار في القرآن الكريم فهو ظاهرة فنية ودعامة تربوية، لها أهداف عدة جاء لإبرازها، إذ ليس المراد من التكرار والتنويع مجرد العرض والمعرفة، أو التشويق والتسلية، وإن تحققت. يقول الزركشي:«إن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء أرادت تحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء إليه، كررته توكيدا، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء، والقرآن نزل بلسانهم، فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم وبعض. وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة»[1]، فالكلام إذا تكرر تقرر في النفس وثبت في الصدر.[2]

ولتكرار القصص القرآني سمات بالغة الأهمية، منها:

أن العبارات كثيرا ما تأتي متشابهة بل متماثلة في مخاطبة الأنبياء لأقوامهم، وكذا في جواب أقوامهم لهم، وهذا لم يرد اعتباطا، وإنما هو مقصود قصدا.

فمثلا في قصص (نوح وهود وصالح وشعيب) عليهم السلام مع أقوامهم المكذبين، فإنها ترد ذات القصة لكل من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في سورة (الأعراف وهود والشعراء) بما يوهم لأول وهلة أن هناك تكراراً في المفردات وفي المجموع، أو هي تكرار لقصة جماعة واحدة مع نبيها، وليست هي قصص متعددة ومختلفة.

وإن عرضها يتم بطريقتين: تنويع في عرض القصة الواحدة من سورة إلى سورة أخرى، مع اختلاف في التلوين تبعا لاختلاف جو السورة.

وتنويع في عرض المجموعة المتشابهة من القصص في كل سورة على حدها، مع إبراز التشابه في موضوعاتها جميعاً لدى عرضها في السورة الواحدة. وهذا واضح لمن طالعه

فتتوحد نتيجة كل من الأقوام المكذبين، بتوحد تدميرهم، وتتوحد عاقبة المؤمنين بنجاتهم أجمعين، ويتنوع الأسلوب.

١- البرهان : ٩/٣ .

٢- الكشاف: ٣٨٥/٣ ومن أسباب تكرار القصة في القرآن الكريم: يوسف حامد الفكي:٢٠وما بعدها.

ومثله تجده في سورتي هود والشعراء، مع تنوع آخر لطيف بين السور الثلاث. وهذا التنويع والتشابه في قصص الأنبياء يرمي إلى إبراز حقائق معينة، من أهمها: [1]

١- إن كل الرسل قد جاءوا بكلمة واحدة من عند الله وبقضية واحدة على تتابع الأجيال يؤدونها: هي اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

٢-إن كل الأقوام قد كان منها تكذيب لرسلها، فلم تستجب لما بلغها به الرسل من عند الله، كما كان منها أن آمن بهم بعض أقوامهم، فانقسم الناس بإزاء الدعوات صنفين، مؤمنين مصدقين، وكافرين مكذبين .

٣-إن الله نجى رسله ومن آمن معهم في النهاية، وأهلك المكذبين ودمر عليهم.

٤-إن الملأ-وهم السادة-هم المكذبون دائما، وهم الذين يتصدون لدعوة الرسل.

٥-إننا نجد أن العبارة تجيء موحدة على لسان كل رسول، في الشريط المتتابع للرسل، كل رسول يقول نفس الكلمة ويمضي، ويأتي مَنْ بعده بنفس الكلمة أيضا بلا تغيير، وكأنما هي رسالة واحدة مكررة، وإن اختلف الزمان والمكان، واختلف الأشخاص واللغات. وهذا ما تجده بارزا في أسلوب القصص القرآني.

٦-أحيانا يخبر عن قوم معينين أنهم كذبوا الرسل، مع أنهم لم يرسل لهم إلا رسول واحد، وأحيانا يقال عن أقوام متعددين أنهم عصوا رسول ربهم. ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول بمثابة تكذيب جميع الرسل. فهي جاهلية واحدة مكررة وإن اختلفت اللغات والأشخاص، وتباعد الزمان واختلف المكان.

٧- إن القرآن حينما يقدم علينا قصص الأمم المتعاقبة في التاريخ، بشخوصها التي يحكيها وكأنها متماثلة، ونتائجها المتشابهة، فيظهر لنا دائما وحدة الدعوات، ووحدة المواقف، ووحدة النتائج واستمرارها، فإنما يثبت لنا أن سنن الله في الخلق ثابتة لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتحول؛ لأن هذا بمثابة الاستقراء التاريخي الشامل للأحداث والوقائع التي حدثت في الحقب الزمنية المختلفة، وهذا الاستقراء لأحداث التاريخ يبرهن على أن تلك النتائج لا تتخلف متى ما قامت أسبابها، وأنه متى ما قامت الأسباب المتشابهة جاءت نتائجها متشابهة، فلا تقبل التغيير ولا التحويل.

١- دراسات قرآنية : ٢٥٧ ومن أسباب تكرار القصة في القرآن:٢٦.

وهكذا حينما نقرأ قصة كل رسول في السور المختلفة، نجدها تتنوع بحسب أجواء السورة، وهو يؤكد لنا أن إيراد هذا اللون من القصص بأسلوب التكرار والتنوع إنما هو مقصود لأداء وظائف معنوية مع الوظيفة الفنية، ومن هذه الفوائد والمقاصد هي:

١-إن في إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة، من زيادة شيء في موضع لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى، أو تقديم وتأخير، ما لا يخفى من الفصاحة.

٢- إن في هذا التكرار إظهار خاصة القرآن، حيث لم يحصل مع تكرار ذلك فيه هُجْنة في اللفظ، ولا ملل عند سماعه، فباين ذلك كلام المخلقين.

٣- لقد أفاد إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم جذب النفوس إلى سماعها، لما جبلت عليه من حب التنقل بين الأشياء المتجددة واستلذاذها بها.

٤-إنه تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله، بأي نظم جاءوا، ثم أوضح الأمر في عجزهم؛ بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاء به وبأي عبارة عبر بها.

٥- إنه تعالى تحداهم بالإتيان بمثل سورة منه، ولو اكتفى بذكر القصة في موضع واحد لقال قائل منهم: إيتونا أنتم بسورة من مثله، فأنزل الله سبحانه القصص مكررا في السور بأساليب متعددة، قطعا لحجتهم من كل وجه.[1]

٦- تكرار القصص فيه تكرار العظة والعبرة، من باب تذكرها لمن نسيها، وترسيخ مرماها في ذهن السامع والقارئ.

٧- إظهار جوانب أخرى من العبر والحكم والعظات تناسب المقام الذي وردت فيه، إذ أن كل قصة تكرر ذكرها قد جاءت متناسقة مع السياق الذي وردت فيه، ولها وظيفة جديدة تؤديها في مقامها الجديد.

وتكرار القصص هو الغالب، لكنه قد يقص بعض القصص في موضع واحد دون أن يكرره، كقصة يوسف، وسبب عدم تكرارها -والله أعلم_ أن هذه القصة جاءت عقب سؤال الصحابة للنبيﷺ أن يقص عليهم كما رواه الحاكم في مستدركه، فنزلت مبسوطة تامة، ليحصل لهم مقصود القصص، من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها. كما أنها لم تكن بصدد إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية لتكرار مثل تلك تهديدا وإنذارا لكفار قريش،

١ - الإتقان:٣/٢٠٤-٢٠٥.

بأن يحل بهم مثل ما حلّ بمن سبقوهم من المكذبين. ثم إن فيها ذكر تشبيب النسوة به، وافتتانهن بيوسف، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر، وتعليم الأمة بأن لا يحرصوا على نقل وتكرار حكاية مثل هذا إلا بقدر الحاجة، وللعبرة والاتعاظ.(١)

بعد هذا نؤكد أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن، وأن من إعجاز القرآن أن يعرض الموضوعات بهذا القدر المعجز في التنويع للتذكير والتربية والتوجيه، بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبداً في القرآن على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع. فوق أنه يذهب عن النفس الملال.

المبحث الثالث

الإعجاز بالإخبار عن الغيب

أولا: مفهومه:

إن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب سواء كانت الماضية أو الحاضرة أو المستقبلية، التي لا علم لمحمدﷺ بها، ولا سبيل لمثله أن يعلمها، مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب لا يمكن أن يكون نابعا من نفس محمد ولا غيره من الخلق، بل هو كلام علام الغيوب: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الأنعام: ٥٩، من ذلك قصص الماضي البعيد المتغلغل في القدم، وقصص الحاضر الذي لا سبيل إلى رؤيته ومعرفته، وقصص المستقبل الغامض الذي انقطعت الأسباب دونه.

وسر الإعجاز في ذلك أنه وقع كله كما حدث وأخبر، وجاء على نحو ما أنبأ به، وما تخلف منه شيء، يشهد بصحته ما جاء به الأنبياء من قبل، وتصدقه فيه شهادة التاريخ، وما يجدّ في العالم من تجارب وعلوم، وما تلده الأيام وتجيء به الليالي.

ثانيا: آراء العلماء فيه:

للعلماء في ما جاء في القرآن من أخبار الغيب مذهبان:

الأول- ذهب جماعة من العلماء إلى اعتباره وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وشاهد من شواهده.

---

١ - الإتقان:٣/٢٠٥-٢٠٦.

وكان منهم من اقتصر عليه، واعتبره هو الوجه المتحدى به الذي يظهر فيه الإعجاز في القرآن. ومنهم من يرى أنه وجه من وجوه الإعجاز المتعددة، ومن اجتماعها يتحقق إعجاز القرآن.

المذهب الثاني: وهو قول بعض العلماء، وهؤلاء يرون أن هذا ليس هو الذي تحدى الله به الخلق، وإن كانت هذه الأخبار الغيبية هي معجزة ونوع من الإعجاز الذي لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، فمثل هذا هو من الدلائل على صحة النبوة وصدق المدعي لها لا أنه هو المعجزة المتحدى بها، وفرق بين ما كان دليلا على نبوة الرسول ﷺ وما كان إعجازا . يقول الخطابي: [١] «ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل الله سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق على أن يأتي بمثلها.. قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ البقرة: ٢٣، من غير تعيين، فدل على أن المعني فيه غير ما ذهبوا إليه». ويقول د. أحمد أحمد بدوي:[٢] «والتنبؤ بالغيب والحديث عن الماضي إن أتخذ دليلا على نبوة الرسول لم يصلحا برهانا على إعجاز القرآن، ذلك أن معظم القرآن ليس تنبؤا ولا قصصا، ولو كان الوجه ما ذكر لفقد معظم القرآن صفة الإعجاز؛ لأن التحدي وقع بأقصر سورة منه، وهي لا تحوي من التنبؤ والقصص شيئا». ويبدو أن هذا الرأي وجيه، فالإخبار بالغيب هو معجزة له عليه الصلاة والسلام، تدل على صحة نبوته وكون هذا القرآن من عند الله، لكنها ليست المتحدى بها، ولذا فهو ليس مكمن الإعجاز ودليله.

ثالثا: وجوه الإخبار بالغيب في القرآن:

إخبار القرآن عن الغيوب جاء على جهات ثلاث: الماضي، والحاضر، والمستقبل.

١-الأخبار عن غيب الماضي أو (الإعجاز التاريخي):

لقد أنبأ القرآن عن غيوب كثيرة من غيوب الماضي، تتمثل في تلك القصص التي يفيض بها التنزيل، ولم يكن لعلم محمد ﷺ بها من سبيل، فيأتي القرآن يقصها مصورا رسول الله ﷺ وكأنه حاضرا قصتها، مشاهدا أحداثها، ومراقبا لها، يعيش بين أصحابها، منها قصة نوح التي قال فيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ هود: ٤٩. وقصة موسى التي يقول فيها: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ

١- بيان إعجاز القرآن: الخطابي: ٢١.

٢- من بلاغة القرآن:٥٠ وينظر الإعجاز في دراسات السابقين: ١٨٦ – ١٨٧.

الشَّاهِدِينَ، وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ القصص: ٤٤-٤٦، ومنها قصة مريم وفيها يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ آل عمران:٤٤، وقوله في قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يوسف:١٠٢، ونحوها كثير.

إن هذه الأنباء من قصص الماضين حكاها القرآن الكريم حكاية من شاهدها وحضرها، وجاءت كلها فيه على أصدق خبر وأدق نبأ، يشهد لها التاريخ، ويصدقها أهل الكتاب بما ورد الكثير منها في كتبهم، مع أن رسول اللهﷺ لم يقرأ في كتاب، ولم يدرس على معلم، كما أن ما أظهرته الحفريات الحديثة والنقوش والآثار العمرانية القديمة قد شهدت لكثير من الأخبار التي جهل أمرها حتى على الرسولﷺ، أو خفي الكثير من أخبارها على الناس وقت النزول.

ومن هذه الأخبار التاريخية التي أوردها القرآن الكريم وهي تشهد لأعجازه وإلهية مصدره، ما جاء في قصة غرق فرعون لدى مطاردته موسى عليه السلام وأتباعه، إذ أغرق الله سبحانه فرعون مع جيشه بعد أن نجى موسى عليه السلام مع قومه، وعند معاينة فرعون الموت بالغرق أعلن إيمانه بما آمنت به بنو إسرائيل، فقال له الحق كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ يونس:٩٠-٩٢، وإن نجاة بدن فرعون لم يذكره الكتاب المقدس اليهودي في هذه القصة، كما أن الأناجيل لم تورد القصة أصلا، واليوم وبعد ثلاثة آلاف سنة من غرق فرعون، وأربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم تكتشف جثة فرعون هذا وهو (منبتاح بن هرمس الثاني) فرعون الخروج في إحدى المقابر في مدينة طيبة في مصر، ثم تنقل إلى متحف القاهرة، لتبقى آية للناس يشاهدون مصير من تجبر على الله واستكبر، وطغى عن أمر ربه، ويصبح شاهد صدق على كون هذا القرآن من عند الله لا من عند بشر، إذ من أعلم محمدا الأميﷺ أن فرعون الغريق لم تبتلعه المياه، ولم تمزق جسده الأسماك، وأنه قد نجى ببدنه من الغرق، فألقاه اليم على الشاطئ منفوخا مهزوما صاغرا، مع أن كتب التاريخ وكتب أهل الكتاب المقدسة لم تذكر شيئا عن نجاة بدنه ولم تشر إليه، إنه الله علام الغيوب.

وكما يورد القرآن قصصا لها مصدر تاريخي آخر كالتوراة وكتب التاريخ فتكون مصدقة لما جاء به القرآن الكريم، فإنه يورد قصصا آخر لم يكن لها مصدر سوى القرآن، وفي هذا تكمن قيمة تاريخية مهمة بما يقص من تاريخ الأمم الذي أسدل دونه الحجاب، كذلك فإن قيمة تاريخية مهمة أخرى لقصص القرآن الكريم، هي تصحيح الوقائع والأخبار التاريخية لكثير مما حرفه التاريخ جهلا أو عمدا، مثل ما يتعلق بأخبار الأنبياء عليهم السلام، وتبرئتهم مما ألصقه بهم أهل الكتاب من رذائل ومساوئ أخلاقية يتنزهون عنها عليهم السلام.

ومنها أيضا: أخبار تصحح بعض ما كتبه اليهود عن التاريخ خطأ، مثل: ما أورده القرآن في قصة إبراهيم عليه السلام، فقد أخبر عن اسم أبيه أنه (آزر)، بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ الأنعام: ٧٤، بينما ورد في الكتاب المقدس وكتب أهل الكتاب الأخرى أنه (تارح)، وتابعهم عليه كثير من المفسرين والمؤرخين المسلمين، والحقيقة هي كما أثبته القرآن، وأننا لو تمعنا في الموضوع لوجدنا أن إيراد القرآن لاسم أبي إبراهيم كان مقصودا بسبب ذلك الخطأ الشائع والمشهور، إذ القرآن لا يعني كثيرا بذكر الأسماء سواء للأشخاص أو الأماكن ما لم يتعلق بها عبرة، أو يتصل بها أمر مقصود، لأن الغاية هي إظهار سنن الله في الخلق واستمرارها من حيث الأسباب والنتائج بصرف النظر عن الزمن أو المكان الذي وقعت فيه، أو الأشخاص الذين وقعت منهم تلك الأحداث، لكنه هنا صرح باسم (آزر) فكان لا بد أن وراءه سببا مقصودا، وهذا السبب كما يبدو تصحيح للتاريخ الذي كتبه اليهود بأيديهم، فأخطأوا في اسم والد أهم شخصية ينتسبون إليها، فكيف إذاً الشأن فيما سواها. وأما (تارح) فإن القراءة المحققة الناقدة لمورد ذكره في (الكتاب المقدس، التوراة) يظهر لنا خطأ المذكور فيها.

فلو تتبعنا أخبار أجداد سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما ورد ذكرهم في (سفر التكوين) من (الكتاب المقدس) نجد أن سن الإنجاب عند كل واحد منهم – وكما أوردته التوراة – يتراوح ما بين (٢٠ – ٣٥)، وهذا السن منطبق على جميع أجداد سيدنا إبراهيم إلى حين جده الأعلى سيدنا نوح عليه السلام، لكننا إذا قرأنا سن الإنجاب فيما تذكره التوراة لوالد إبراهيم وهو (تارح)، نفاجأ بأن سن الإنجاب عنده تجاوز سن السبعين عاما، بمعنى أن تارح لم يرزق بإبراهيم – وهو ابنه البكر – إلا في سن متقدمة وغير اعتيادية، وهذه سن تعني أن الإنجاب عندها خارق للعادة، مع أن التوراة لم تورد أن ولادة سيدنا إبراهيم وهو بكر أبيه كانت ولادة غير عادية، ولم تشر إلى هذا أخبارهم التاريخية مطلقا، مع أنه خبر ينبغي أن يحتفل به ويهتم، في الوقت الذي اهتمت أخبارهم بالإنجاب الغير عادي الذي حصل لسيدنا إبراهيم، حيث رزق بإسحاق عليه السلام بعد أن تجاوز السن المعتاد في الإنجاب، مما يفيد بالقول أن تارح لم يكن والد إبراهيم، لما بينهما من الفصل

الزمني غير المعتاد، ويفيدنا بالقول أن سقطاً قد وقع بين تارح وإبراهيم هو آزر، فآزر هو أبو إبراهيم وتارح جده، وبهذا تكون سن الإنجاب طبيعية لدى الجميع، وصدق الله الحق القائل:﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ النمل:٧٦.

٢- الإخبار عن غيب الحاضر:

أ) إخباره عن الموجودات الغائبة عنا مما لا يدرك بالحس والمشاهدة، مثل إخباره عن الملائكة والجن ، وعن الجنة والنار، وعن الأجرام السماوية وتفصيلات هذه الأمور، ونحوها، وهكذا إخباره عما يتصل بالله تعالى من صفات وأفعال، مما لم يكن لرسول الله ﷺ سبيل لرؤيته ولا العلم به، متحدثاً عن هذا الوجه بالتفصيل والوضوح الذي أيده فيه ما جاء به الأنبياء وما حكته كتبهم من قبل.

ب) إخباره عن أحوال المنافقين وفضحه لأسرارهم التي خفي أمرها على النبي ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ البقرة: ٢٠٤-٢٠٥، فقد رويت في سبب نزولها عدة روايات من أشهرها: أنها نزلت بالمدينة في الأخنس بن شريق الثقفي لما قدم على النبي ﷺ بالمدينة وأظهر إسلامه نفاقا فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال الأخنس مخاطبا النبي ﷺ: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أني صادق، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع، وعقر الحمر، فأنزل الله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ الآية. فكشف عن حقيقة أمر إسلامه وعن إفساده الذي فعله بالزرع والحمر، والذي ظن أنه لا يعلم به أحد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في جماعة من المنافقين، وذلك لما بعث رسول الله ﷺ بالسرية من أصحاب خبيب إلى الرجيع-بين مكة والمدينة- فأصيبت، فقال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ فاضحا حقدهم على الإسلام والمسلمين[1]. فمن أخبر محمدا ﷺ بما تسره قلوب المنافقين، ومن أعلمه بما يقولون في حال خلوتهم بأنفسهم، وما أدراه بأن الأخنس هو الذي أحرق الزرع وأهلك الحمر، لا شك أنه علام الغيوب.

١- تفسير الطبري: ٢ / ٣١٢ - ٣١٣، وأسباب النزول: السيوطي: ٥٣.

ومثل إخباره عن حقيقة مسجد الضرار الذي بناه المنافقون: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ التوبة: ١٠٧. فقد روي في سبب نزولها: أن اثني عشر رجلا من المنافقين بنو مسجدا في المدينة، وكان منهم رجل ارتد ولحق بهرقل، وكان وعدهم بأن يأتيهم بجيش من الروم لمقاتلة النبي ﷺ وصحبه، بعد أن يكون المسجد فعل فعله في تفريق جماعة المسلمين، فلما فرغوا من بناء المسجد أتوا النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا فيه، فلما قدم من تبوك وهو في طريقه نزل بـ(ذي أوان) – بلد بينه وبين المدينة ساعة– فنزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ الآية، فأخبره الله تعالى بأن غاية هؤلاء ضرار لمسجد رسول الله ﷺ، وكفر بالله، ومحادة لرسوله، ولكي يفرقوا به بين المؤمنين، فيصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ، ويبقى بعضهم يصلي في مسجد رسول الله ﷺ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا، فلما أخبر الوحي رسول اللهﷺ بذلك بعث وهو بـ (ذي أوان) مالك بن الدخشم ومعن أو أخاه عاصم بن عدي وقال لهما:«انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه، فخرجا مسرعين وفعلا ما أمرهما به»[١].

وهكذا كل ما أخبر به القرآن الكريم عن أحوال الناس وأمورهم القائمة الخفية التي لم يطلع عليها غير أصحابها مثل حكاية قصة الإفك، وحقيقة أمره، وحقيقة أمر الثلاثة الذين خلفوا، ومؤامرات المشركين والكفار، ونحو هذا وهو كثير.

٣– الإخبار عن غيب المستقبل:

فكم من خبر مستقبلي كشف القرآن حجابه فتحقق في حياة الناس ورأوه بأم أعينهم، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

١–ألم يستعص أهل مكة على النبي ﷺ حتى دعا عليهم بسنين كسني يوسف؟[٢]، فأصابهم القحط، وأكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ

١– تفسير الطبري: ١١ / ٢٣.

٢– ينظر صحيح البخاري: في الاستسقاء رقم: ٩٦٢ عن ابن مسعود.

وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ، إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ الدخان:١٠-١٦، وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات:

أ-الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان.

ب-الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة.

ج-الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

د-الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعنادهم.

هـ-الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر.

وقد تحقق ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة، فهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق.

٢-ثم ألم يتم انتصار الروم على الفرس من بعد غلبهم في بضع سنين كما قال تعالى: ﴿الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٢-٦، وهي تتضمن نبوءتين:

إحداهما: انتصار الروم على الفرس.

والثانية: فرح المسلمين بنصر عزيز في هذا الوقت الذي ينتصر فيه الروم، وهو انتصارهم في بدر الكبرى.

وقد جاء هذا الإخبار بأسلوب قاطع وتأكيدات بالغة، ثم في التحديد بقوله: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ ، (والبضع من ثلاث إلى تسع) وقد تحققت لما دخلت السنة السابعة[١]، السنة الثانية للهجرة، وفيها أيضا تحقق انتصار المسلمين على المشركين ببدر، وفي وقت متزامن مع انتصار الروم.

٣-كذلك ألم تلحق المشركين الهزيمة في بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة تصديقا لآية سورة القمر المكية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ القمر:٤٥، مع أن فكرة التقاء الجمعين لم تكن في مكة واردة أصلا، بل الجهاد لم يشرع إلا في السنة الثانية للهجرة، ولهذا كان رسول الله ﷺ يردد

١- صحيح الترمذي بشرح الأحوذي: ١٢/٧٠ - ٧٢، وحكى قصة رهان أبي بكر مع قريش على تحقيق هذه النبوءة قبل تحريم الرهان، وقال حديث حسن صحيح غريب، وفي تفسير الطبري والقرطبي روايات مفصلة لها ينظر تفسير الطبري: ٢١ / ١٦.

هذه الآية يوم بدر وقد روي عن عمر رضي الله عنه قوله: كنت أقول حين نزلت هذه الآية: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقولها [١].

٤-وهل أخلف الله وعده للمؤمنين عام الحديبية من دخول المسجد الحرام وتبديلهم من بعد خوفهم أمنا، وتحليق رؤوسهم وتقصيرها قضاء للشعيرة،[٢] كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الفتح: ٢٧ .

٥-ولعل من أعجب العجب أن يضمن الله لنبيه حماية شخصه، وعصمته من أذى الناس، مع أن الراغبين في قتله كانوا يحيطون به من أمامه ومن خلفه، ولكن إرادة الله تعالى جعلته على يقين بأن الله حاميه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المائدة:٦٧، فلما نزلت أخرج رسول اللهﷺ رأسه من الخيمة وقال لنفر كانوا يحرسونه على بابها:«يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله »[٣].

فكان لا يهاب العدو في أخطر المواقع، حتى قال علي رضي الله عنه:«كنا إذا حمي الوطيس اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه» [٤]، فتحققت نبوءة القرآن الكريم فلم يصلوا إليه بقتل، ولم ينالوه باغتيال، رغم تربصهم به ومحاولاتهم المتكررة، وملاقاته لهم في ساحات القتال وغيرها، وكثرة عددهم وعدتهم، مع كونه أضعف منهم استعدادا ماديا، وأقل جنودا وها هو في غزوة حنين يركض بغلته إلى جهة العدو، فلما غشيه المشركون لم يفر، بل نزل عن بغلته كأنما يعرض نفسه لهم وهو يقول معلنا عن نفسه واثقا من وعد الله له بعصمته منهم:« أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[٥].

والشواهد من هذا القبيل كثيرة ومشهورة ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم أنه في غزوة ذات الرقاع نزل النبيﷺ تحت شجرة وعلق سيفه فيها فأتاه رجل من المشركين وأخذ السيف، وقال

١-رواه الطبراني وابن أبي حاتم، مجمع الزوائد: ٦/١٠٠، وتفسيرالطبري:٢٧/١٠٨،وينظر: البخاري:٦/١٤٥.
٢-السيرة النبوية: ابن هشام: ٤ /١٢ قصة عمرة القضاء.
٣-الترمذي بشرح الأحوذي: ١١/ ١٧٤، وتفسير ابن كثير: ١/٧٧.
٤-رواه أحمد برقم: ١٣٤٦ والنسائي: ٨٦٣٩، وبنحوه في مسلم: ١٧٧٦عن البراء بن عازب.
٥- البخاري: ٢٧٠٩، ومسلم: ١٧٧٦.

للنبيﷺ: أتخافني؟ قال: لا، فقال الرجل: وما يمنعك مني؟، فيجيب: الله يمنعني، ضع السيف، فلا يملك الرجل إلا أن يضع السيف.[١] وحكي أن الرجل أسلم.

٦- وهكذا تنبؤ القرآن الكريم بعدم قدرة أحد على معارضة القرآن، وتنبؤه بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحا باهرا، وحفظه للقرآن من التحريف.

٧- ما جاء في تحديه لليهود في شيء يظهر أنه سهل بسيط بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ٩٤، ثم قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ٩٥، ولم يحاول أحد منهم أن يزعم أنه يتمنى الموت ولو بظاهر القول[٢]، وهكذا إخباره عن مصير أبي لهب في سورة (المسد)، فماذا يكون الحال لو أن أبا لهب ادعى الإسلام وقال مناديا بين قومه: يا أيها الملأ: أشهدكم أنني أسلمت، ثم شهد الشهادتين، ألا يكون هذا مدعاة لتكذيب القرآن ومن جاء به؟ لكن الله ألجمه، فلم يقدر، بل ولم يدر في خلده أن يفعل ذلك. وهكذا عن الوليد بن المغيرة بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ القلم:١٦، وهو ما وقع في غزوة بدر الكبرى[٣]، فكيف يكون الأمر لو لم يخرج إلى المعركة، فأخرجه الله سبحانه إلى بدر مكرها بعد تردد منه، وكان حقا ما وعد به. وكثير من هذا مما لا يمكن أن يبت في مثله إلا مجازف يعبث، أو مؤمن ذو يقين، وما عرف الناس في رسول الله مخايل المجازفين، ولا ملامح المفترين، فلا بد أن يكون من الموقنين المؤمنين،[٤] الذين يخبرون عن علم الغيب الحق من لدن الخبير العليم. ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يونس: ١٦.

المبحث الرابع

شبهة القول في الإعجاز بالصَرْفَة

أولا: معناها وذكر القائلين بها:

الصَرْفَةُ تعني أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله، لأن الله سبحانه قد صرفهم عن ذلك، وأمسك بهم أن يقوموا له، ولو قاموا له لقالوا مثل ما قال، وكان بوسعهم أن

١-رواه الشيخان عن جابر، البخاري بشرح إرشاد الساري:٥/ ٩٩، ومسلم بشرح النووي: ١٥/٤٤.
٢- مناهل العرفان: ٢ / ٢٤٠.
٣- تفسير الطبري: ٢٩ / ٢٨.
٤- مناهل العرفان: ٢ / ٢٤٢ ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٤٤.

يجاروه ويعارضوه بمثل قوله، تأليفا ونظما وبلاغة، لأنه من جنس الكلام الذي جرى على ألسنتهم نثرا وشعرا، فكان هذا الصرف هو الخارق للعادة وبه وقع الإعجاز.

وقد عرفنا فيما سبق أن آراء العلماء تتفق على القول بأن العرب قد تحدوا بالقرآن الكريم، وقد أرادوا القيام لهذا التحدي، وحاولوا أن يقابلوا هذا النظم بنظم مثله، فوجدوا أن ما يقولونه لا يقام له وزن مع القرآن، وصمتوا واختاروا للمنازلة أمراً آخر.

ومع هذا فقد ذهب بعض الناظرين في إعجاز القرآن مذهبا آخر، يخالف ما انعقد عليه الإجماع من أن الإعجاز في القرآن حاصل في أمور قائمة فيه، يعجز الناس عن مجاراتها، وهذا المذهب المخالف لإجماع الأمة هو مذهب من يقول (بالصَرْفَة).

وأول من قال بهذا القول هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي شيخ الجاحظ (ت سنة بضع وعشرين ومائتين) يقول الشهرستاني:[١]«وزعم النظام أن إعجاز القرآن (بالصرفة) أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم، لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات».

ويرى النظام أن تحقق الإعجاز وكون القرآن دليلاً على صحة النبوة، هو من جهة ما ورد فيه من الأخبار عن الغيوب المستقبلية، وإخباره بما في نفوس القوم، وبما سيقولونه، فالقرآن حجة على نبوة النبي ﷺ من هذه الوجوه، أما نظم القرآن وحسن التأليف والفصاحة والبلاغة فليست بمعجزة النبيﷺ.[٢] وممن قال بالصرفة أيضاً الشريف المرتضى الذي يرى أن الصرف بذاته أمر خارق للعادة يشهد للرسول بصدقه، كما تشهد سائر المعجزات، ويقول:«بل صرفهم الله بأن سلب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، فهذا الصرف خارق للعادة، فصار كسائر المعجزات»[٣]، وبمثل هذا القول للمرتضى قال ابن سنان الخفاجي أيضا.[٤]

ووهم بعضهم في نقله القول بالصرفة عن الجاحظ[٥]، والصحيح أن الجاحظ لم يقل بالصرفة على النحو الذي ذهب إليه شيخه، بل رأيه صريح في كتبه بخلاف ذلك، إذ يقول: «في كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق: نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد».[٦] فالصرف

١-الملل والنحل:الشهرستاني:١/١٤٢والإتقان:٢/١١٨، وينظر الانتصار لابن الخياط: ٢٨-٢٩.

٢- الإعجاز في دراسات السابقين: عبد الكريم الخطيب: ٣٦٤، وينظر: بيان إعجاز القرآن: ٢٢ – ٢٣.

٣- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز: ٢٥.

٤- الفصاحة: ابن سنان: ٨٩.

٥- إعجاز القرآن وعلم المعاني: د.عمر ملا حويش: ١٥٨.

٦- الحيوان: الجاحظ: ٤ / ٣١.

الذي عناه الجاحظ هو أن ما في القرآن ذاته من بعد بعيد بين نظمه وبين كل قول يقال، هو الذي حجز العرب عن أن ينزلوا معه في تلك المعركة، التي يعلمون علما محققا أنهم إن فعلوا فضحوا أنفسهم، فاليأس عن مجاراته هو الذي صرفهم عن قبول التحدي، فالصرفة تمنع من أن يتكلف للمعارضة بعض المتكلفين، فيشوش على القرآن، فهي ليس صرفة مطلقة، وإنما صرفة عن أمر هو معجز في ذاته لا بأمر خارجي عنه[١].

وقد ذهب ابن سنان يدلل على صحة الإعجاز بالصرفة، ويرد على القول بأنه معجز بالنظم والبلاغة، ولا سيما على رأي الرماني في رسالته (النكت)، والتي ذهب فيها إلى أن إعجاز القرآن متحقق من وجوه سبعة، منها بلاغته، وأن القرآن في الطبقة العليا من البلاغة التي لا تداينها أساليب العرب، ولا تجاريها نظومهم، فيقول ابن سنان: إن العرب صرفوا عن المعارضة صرفا، إذ ليس بين القرآن وبين فصيح كلامهم فرق، لأن القرآن جاء على وفق أساليبهم، وكلامه من جنس كلامهم، وتأليف الكلمة الفصيحة كانت مستخدمة عندهم، ومن اقتدر على استخدام الكلمة الفصيحة التي هي في أعلى طبقة من البلاغة هو قادر على تأليفها مع مثيلاتها، فكلامهم وكلام القرآن واحد في فصاحته وبلاغته، لأن جميع الكلام الذي يتكلم به أهل اللسان الواحد على درجة واحدة من الفصاحة والبيان، إلى آخر ما استطرد به على هذا النحو.[٢]

ثانيا: ردود العلماء على القول بالصرفة:

وقد رد قولهم هذا من قبل العلماء قديما وحديثا، إذ أن هذا المذهب وكما قلنا يخرج على ما عليه إجماع الأمة، ومن هذه الردود:

١-إنه لو صح ذلك لصح لكل من أمكنه نظم ربع بيت، أو مصرع من بيت، أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار، وصح لكل ناطق قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة، نظم الخطب البليغة، والرسائل العجيبة، وهذا غير سائغ، ولو جاز هذا لما كان هناك تفاوت بين كلام وكلام، وقول وقول، وكاتب وكاتب، وشاعر وشاعر.

٢-لو كان العرب في عصر النزول قد صرفوا -كما يزعمون- لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم، لأنهم لم يتحدوا إليه، فلما لم يوجد في كلامهم مثله علم أن ما ادعوه من الصرفة ظاهر البطلان.

١- الإعجاز في دراسات السابقين: ٣٦٥.

٢- سر الفصاحة: ابن سنان: ٨٩ – ٩٣.

٣-ولو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا، وإنما المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه، كيف وقد وقع التحدي بلفظه، ونسب الفضل إليه. وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق بقوله: إن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به.[١] فلماذا لا يتعلمونه؟ وكيف تعلمه محمد ﷺ إن كان من عنده وهو بشر مثلهم؟.

٤- لقد تضمن التحدي ما يفيد أن المعجز هو القرآن نفسه، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء:٨٨، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم، لأن منزلة اجتماعهم عندئذ تكون بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره. هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز، وإنما المعجز هو الله تعالى، حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله!.

٥-كما يلزم من القول بالصرفة فساد آخر، هو زوال الإعجاز بذهاب زمان التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة، فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى، ولا معجزة باقية سوى القرآن، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة[٢].

الفصل الثالث

وجوه الإعجاز لدى المحدثين

المبحث الأول

الإعجاز العلمي

والمراد به هو ما اشتمل عليه القرآن الكريم من تصريح أو تلميح إلى حقائق العلوم والمعارف التي لم يعهدها العرب، ولا علماء أهل الكتاب، ولم يشتمل عليها كتاب من قبل، فجاء العلم الحديث بعد ألف وأربعمائة سنة من نزوله يؤيدها، ويشهد لصحتها، ويعلن صدق كل ما جاء فيه من هذا النحو، فشد أنظار العلماء إليه في ذلك.

١- إعجاز القرآن: الباقلاني: ٣٩.

٢- البرهان في علوم القرآن: الزركشي:٩٤/٢، بيان إعجاز القرآن:الخطابي:٢٣ والإتقان: ١٦٨/٢.